عبد الحميد كشك

يا غافلاً والموت يطلبه

مدرسة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

يا غافلًا والموتُ يطلبُه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

دار البشير - القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص . ب : ١٦٩ المعادي . ت : ٩٨٧٣٦٨

عبد الحميد كشك

يا غافلاً والموت يطلبه

دار البشير
القاهرة

(ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا)

(النبأ : ٣٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين . وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبى الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين ، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

اللهم إنا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله . نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ، ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . نرجو رحمتك ونخشى عذابك . إن عذابك الجد بالكفار ملحق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وبعد :

فهذا كتاب خصصنا الحديث فيه عن اليوم الآخر الذى يجب على كل مسلم أن يعد له الزاد ، وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز تقى الدين الحسن البصرى فقال له : عظنا . فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ، صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

عبد الحميد كشك

الفصل الأول

أهوال القيامة و النجاة منها

- إن زلزلة الساعة شئ عظيم .
- ما النجاة ؟
- الذكر طريق النجاة .
- فوائد الذكر كما ذكرها ابن القيم .

إن زلزلة الساعة شئ عظيم

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج : ١ ــ ٧)

فى هذا المشهد القرآنى ينادى الله تعالى على البشرية آمراً إياهم بالتقوى وقد فسر الإمام على كرم الله وجهه التقوى بأنها الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقد وقف رضى الله عنه بين المقابر ذات يوم فقال : السلام عليكم يا أهل المقابر أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . أنتم فرطنا إلى الجنة ونحن لكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية ــ يا أهل القبور أما أموالكم فقد قُسمت ، وأما بيوتكم فقد سُكنت ، وأما نساؤكم فقد تزوجن غيركم . هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم أنصت قليلا والتفت إلى أصحابه وقال : أما والله لو شاءَ اللهُ لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج : ١ ، ٢)

روى عن النبى ﷺ فى تفسير هذا المشهد أحاديث كثيرة .

فقد روى الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال : « أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول : يا آدم ابعث بعثك إلى النار ، فيقول : يارب وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار وواحد فى الجنة ، قال : فأبلس أصحابه . فلما رأى ذلك قال : « أبشروا واعملوا ، فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه (يأجوج ومأجوج) ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس » .

قال الإمام البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبى سعيد قال : قال النبى ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم ، فيقول لبيك ربنا وسعديك ، فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال يا رب وما بعث النار ؟ قال من كل ألف ــ أراه قال ــ تسعمائة وتسعة وتسعون . فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد .

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾

فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . قال النبى ﷺ « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم فى الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ، ثم قال : ثلث أهل الجنة فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة فكبرنا » .

وقال الإمام أحمد : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار ، فيقول آدم : يارب من هم ؟ فيقال له : من كل مائة تسعة وتسعون » فقال رجل منَ القوم : من هذا

الناجى منا بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : « هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى صدر البعير » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن أبى صقيرة حدثنا ابن أبى مليكة أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال :

« يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب ، إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد . قال فينطوى عليهم ويرميهم فى غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحدّ من السيف ، عليه كلاليب وحسك « شوك » يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق ، وكالطرف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم ، سلم . فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكور فى النار على وجهه » .

ومعنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أى أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق فظيع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب .

قال تعالى ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ١ : ٨) .

والمراد بزلزال الساعة ما يحدث للنفوس من فزع وكرب شديد . قال جل جلاله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسهُمْ خَالِدُونَ . لاَ يَحْزُنُهُم الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُم الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . (الأنبياء : ١٠١ :١٠٣)

ومعنى قوله جل شأنه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ (الحج : ٢) : أى يشتغل كل حميم عن حميمه . ويفر كل صديق من صديقه . حتى إن الأم تلقى ولدها فتقول له : يابنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان ثديى لك سقاء ، وكان حجرى لك وطاءً ، وأنت تعلم ما بى ، أمعك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول ابنها : ليتنى يا أماه أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . ويلقى الوالد ولده فيقول له ولده : يا أبت لقد كنت بك بارا ، وإليك محسنا ، وعليك مشفقا ، فهل أجد عندك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول له والده : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . وهذا معنى قوله جل شأنه :

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلُ مِنْهُ شَىءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ (فاطر : ١٨)

وفى قوله تعالى :

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ معنى بلاغى معجز ، فإن الحامل لا تضع حملها قبل تمام مدته ، إلا إذا أصيبت بفزع شديد ، وهلع عنيف . وهل هناك بعد زلزلة الساعة فزع أعنف أو هلع أشد ؟ إنها كناية من ألطف الكنايات ، وعبارة تتبوأ مكانتها فى أعلى طبقات البلاغة .

- قال تعالى :

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ (الحج : ٢) وذلك لما أصابهم

من الدهشة والشرود ، لهول ما يرون .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ .(المعارج : ٨ - ١٨) .

ألا يكفى أن يكون هذا المشهد جديرا بأن تذهل المراضع عمن أرضعن ، وأن تضع الحوامل حملهن قبل تمام مدته ، وأن يصير الناس فى سكرة وحيرة ، العقول شاردة ، والألباب فى دهشة ، والأفئدة قد بلغت الحناجر ؟ .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (عبس : ٣٣ ــ ٤٢) .

إنهم سكارى من شدة ما رأوا من خطوب وأهوال ، وما هم بسكارى من شراب تعاطوه ، أو كؤوس مترعة تجرعوها ، ولكن عذاب الله شديد .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَالَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى * فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ (الفجر : ٢٣ ــ ٢٦)

إن هذه الآية الكريمة لو نزلت على جبل لخر لها الجبل هدا .

إنها تنخلع من هولها القلوب ، وتشيب من جلالها الولدان .

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾
(الواقعة :١ــ ٣)

* * *

ما النجاة ؟

فى الآيتين السابقتين إشارات صريحة إلى أهوال يوم القيامة . ويكفى أن نضع يد القارىء على هذه المواقف التى تجعل الولدان شيبا ، وتنفطر لها القلوب ، وتنخلع من هولها الأفئدة .

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ويكفى أن تعلم أن الذى أخبر عن كون الزلزلة شيئا عظيما هو الله العظيم .

﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾

وهل هناك صلة أقوى من صلة الأم برضيعها ؟

وهل ثمة عاطفة ورحمة تفوق عاطفة الأم برضيعها ورحمتها به ؟

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾

وهل هناك هول أشد من هذا الهول الذى تطرح فيه الأرحام أجنتها ، وتلفظها من القرار المكين لفظ النوى ؟

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارى ﴾

وهل هناك تعبير عن الحيرة أقوى من السكرة ؟

﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾

وفى كلمة العذاب والشدة ما تقف أمامه النفس خاشعة لجلال ربها ، متواضعة لكبريائه . إن كلمة العذاب فى حد نفسها كلمة عصيبة وخطيرة ، فإذا ما أخبر عنها بالشدة بلغت أعلى مكان من الهول والخطب الجسيم .

وبعد هذا العرض السريع ، والمواقف الحاسمة التى نراها تتخلل الآية الكريمة ، نسأل ما النجاة ؟

ويأتى الجواب على لسان رسول الله ﷺ عندما سأله عقبة بن عامر رضى الله عنه وهو يقول : ما النجاة يارسول الله ؟

قال له : « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » .

أما إمساك اللسان فعن اللغو ، والرفث ، والكلام الفاحش ، وعن كل ما حرم الله من الغيبة والنميمة وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وهنا نسأل فما البديل عن كل هذا ؟

ونجد الإجابة فى قوله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا : بلى . قال : ذكر الله»

ما أروعك يا رسول الله عندما تتكلم بجوامع الكلم فترفعنا إلى أعلى درجات البلاغة . وما أروع ما قيل فيك :

فما عرف البلاغة ذو بيان إذا لم يتخذك له كتابا

كلمة موجزة ، أجاب بها الرسول ﷺ عن هذا العرض العظيم من الخيرات والأجر ، والدرجة والفضل . هذه الكلمة هى ذكر الله . ومعنى الذكر استحضار عظمة الله تعالى فى قلب المؤمن .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾
(الرعد : ٢٨)

نعم تطمئن لرحمته ومغفرته وعطفه .

فذكر الله دواء وشفاء ، وذكر الناس أسقام وداء .

وهل طابت الدنيا إلا بذكره ؟ وهل طابت الآخرة إلا بعفوه ؟ وهل طابت الجنة إلا برؤيته ؟

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٢ ــ ٤)

وجلت قلوبهم تعظيماً لمهابة الله ، وتوقيرا لجلاله وكماله وجماله . فالذكر فى القلب طمأنينة لرحمته وعفوه . وهو أيضا خوف وإجلال لعظمته ومهابته ، فإذا ما أمسك الإنسان لسانه عن اللغو فإنه يشغل بذكر الله .

والذكر كما قالوا على سبعة أنحاء : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

فإذا ما وسع الإنسان بيته فقد أصبح بعيدا عن مواطن الشبهة ومجالس الريبة ، وأماكن الفسق .

ومن وضع نفسه موضع الريبة والشبهة فلا يلومن من أساء الظن به .

إذا ما وسع الإنسان بيته كما أخبر النبى ﷺ فى إرشاده « وليسعك بيتك » فإنه يكون فى بيته كالمصباح المضىء بين أولاده بعيدا عن كل ما يلهى ويشغل ويصبح بيته من البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

وتأتى الفقرة الثالثة « وابك على خطيئتك » .

وهل يبكى الإنسان على خطيئته إلا إذا كان قلبه مليئا بخير وتوبة ؟

وهل يصل الإنسان إلى هذه الدرجة إلا إذا استحضر عظمة الله فى قلبه ؟

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(آل عمران : ١٣٥)

إذن فمدار الأمر كله ، وطريق النجاة يدور حول ذكر الله ، ويرتكز عليه ، فهو قطب الرحى ، ومناط الاستنباط ، وحجر الزاوية ، ومحور الارتكاز ، ومركز الدائرة .

ومن ثمّ فإنه لا بأس أن نسجل هنا حشدا من فوائد الذكر التى نص عليها العلامة ابن القيّم فى كلامه القيم .

عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهما ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم فى كتاب الذكر والترمذى فى كتاب الدعاء .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله قراءة القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أخرجه الترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقول الرب يوم القيامة سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم ، فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر فى المساجد » رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والبيهقى وابن حبان فى صحيحه .

وعن معاوية رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده ؛ فقال : أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة » أخرجه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفورا لكم قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات » أخرجه أحمد .

وعن ثابت قال : كان سلمان فى عصابة (جماعة) يذكرون الله ، فمر النبى ﷺ فكفوا فقال : « ما كنتم تقولون ؟ قلنا : نذكر الله . قال : إنى رأيت الرحمة تنزل ، فأحببت أن أشارككم فيها . ثم قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت « أن أصبر نفسى معهم » أخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه .

* * *

فوائد الذكر كما ذكرها العلامة ابن القيم

والآن إلى ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال رضى الله عنه فى فوائد الذكر :(١)

وفى الذكر أكثر من مائة فائدة :

الأولى ـــ أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية ـــ أنه يرضى الرحمن عز وجل .

الثالثة ـــ أنه يزيل الهم والغم عن القلب .

الرابعة ـــ أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة ـــ أنه يقوى القلب والبدن .

السادسة ـــ أنه ينور الوجه والقلب .

السابعة ـــ أنه يجلب الرزق .

الثامنة ـــ أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعة ـــ أنه يورث المحبة التى هى روح الإسلام وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شىء سببا ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله تعالى فليلهج بذكره ، فالذكر باب المحبة وشعارها الأعظم ، وصراطها الأقوم .

العاشرة ـــ أنه يورث المراقبة حتى يدخله فى باب الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة ـــ أنه يورث الإنابة ، وهى الرجوع إلى الله عز وجل فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله ، فيبقى الله

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ـــ ابن قيم الجوزية ص ٣٨ .

عز وجل مفزعه وملجأه وملاذه ومعاذه ، وقبلة قلبه ، ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة — أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .

الثالثة عشرة — أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

الرابعة عشرة — أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشده استيلائه على قلبه ، وحضوره مع الله تعالى ؛ بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

الخامسة عشرة — أنه يورثه ذكر الله تعالى له ، كما قال تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفا . وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » .

السادسة عشرة — أنه يورثه حياة القلب ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا ما فارق الماء ؟

السابعة عشرة — أنه يورث جلاء القلب من صدئه وكل شىء له صدأ ، وصدأ القلب الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

الثامنة عشرة — أنه يحط الخطايا ويذهبها فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

التاسعة عشرة — أنه يزيل الوحشة بين العبد وربه تبارك وتعالى ، فإن الغافل بينه وبين الله عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر .

العشرون — أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره فى الرخاء عرفه فى الشدة ، وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى ، إذا أصابته شدة أو سأل الله حاجة ، قالت الملائكة : يا رب ، صوت معروف من عبد معروف ، والغافل المعرض عن الله تعالى إذا دعاه وسأله ، قالت الملائكة : يا رب ، صوت منكر من عبد منكر .

الحادية والعشرون ــ أنه منج من عذاب الله تعالى ، كما قال معاذ رضى الله عنه ويروى مرفوعا : « ما عمل آدمى عملاً أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى » رواه الترمذى فى كتاب الدعاء .

الثانية والعشرون ــ أنه سبب تنزل السكينة ، وغشيان الرحمة ، وحفوف الملائكة بالذاكر ، كما أخبر به النبى ﷺ .

الثالثة والعشرون ــ أنه سبب انشغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى . والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله ، صان لسانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله ترطب بكل باطل ولغو وفحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الرابعة والعشرون ــ أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبهما إليه وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة .

الخامسة والعشرون ــ أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أينما كان ، والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .

السادسة والعشرون ــ أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وتِرَة يوم القيامة .

السابعة والعشرون ــ أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لاظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر فى ظل عرشه .

الثامنة والعشرون ــ أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين . ففى الحديث عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ « قال سبحانه وتعالى : من شغله قراءة القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

التاسعة والعشرون ـــ أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها . ولو تحرك عضو من أعضاء الإنسان فى اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثلاثون ـــ أنه غراس الجنة . فقد روى الترمذى فى جامعه من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : يامحمد أقرىء أمتك السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

الحادية والثلاثون ـــ أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » ـــ ومن قال : « سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

الثانية والثلاثون ـــ أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها . قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (الحشر : ١٩)

الثالثة والثلاثون ـــ أن الذكر يسير العبد وهو فى فراشه وفى سوقه وفى حال صحته وسقمه ، وفى حال نعيمه ولذته ، وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله حتى إنه يسير العبد وهو نائم فى فراشه ، فيسبق القائم مع الغفلة فيصبح هذا وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقة الركب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وحكى عن رجل من العباد أنه نزل برجل ضيفا ، فقام العابد ليله يصلى ، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب .

وهذا ونحوه له محمل صحيح ومحمل فاسد ، فمن حكم على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه عز وجل ، وألصق حبة قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا وما فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه عن القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه وفى قلبه ما الله تعالى به عليم . وآخر قائم يصلى ويتلو ، وفى قلبه من الرياء والعجب وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ما الله به عليم ، أو قلبه فى واد وجسمه فى وادٍ . فلا ريب أن ذاك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة .

الرابعة والثلاثون ــ أن الذكر رأس الأصول ، وطريق عامة الطائفة الصوفية ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليطهر وليدخل على ربه يجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجل فاته كل شيء .

الخامسة والثلاثون ــ أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى يشمر إليها السالكون ، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر ، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، وهو أصل كل مقام وقاعدته التى يبنى ذلك المقام عليها ، كما تبنى الحائط على أسسها ، وكما يقوم السقف على حائطه ، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ لم يمكنه قطع منازل السير ، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم ، فالغفلة نوم القلب أو موته .

السادسة والثلاثون ــ أن الذاكر قريب من مذكوره ، ومذكوره معه ، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة ، فهى معية بالقرب والولاية

والمحبة والنصرة والتوفيق ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِين هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل : ١٢٨) ، ﴿ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) ﴿ وإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩) ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر كما فى الحديث الإلهى « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه »

وفى أثر آخر « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى . إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، فإنى أحب التوابين وأحب المطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب » .

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شىء ، وهى أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقى ، وهى معية لا تدركها العبارة ، ولا تنالها الصفة ، وإنما تعلم بالذوق .

السابعة والثلاثون ــ أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكره ؛ فإنه اتقاه فى أمره ونهيه ، وجعل ذكره شعاره . فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار وهذا هو الثواب والأجر ، والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والزلفى لديه وهذه هى المنزلة .

الثامنة والثلاثون ــ أن فى القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى ، فينبغى للعبد أن يداوى قسوة قلبه بذكر الله تعالى .

وذكر حماد بن زيد : أن رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد : أشكو إليك قسوة قلبى . قال : أذبه بالذكر وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة ، كما يذوب الرصاص فى النار ، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله تعالى .

التاسعة والثلاثون ــ أن الذكر شفاء القلب ودواؤه ، والغفلة مرضه ، فالقلوب مريضة ودواؤها وشفاؤها ذكر الله تعالى ، قال مكحول : « ذكر الله تعالى شفاء ، وذكر الناس داء » وقيل :

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانا فننتكس

الأربعون ــ أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها ، والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه .

قال الأوزاعي : قال حسان بن عطية : ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره . فهذه المعاداة سببها الغفلة ، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله ، ويكره من يذكره ، فحينئذ يتخذه الله عدواً كما اتخذ الذاكر ولياً .

الحادية والأربعون ــ أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك ، لما ذكر عن أبي الدرداء قال : « الذين لا تزال ألسنتهم رطبة بذكر الله عز وجل ، يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك »

الثانية والأربعون ــ أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم ، فإذا كانت إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال ، كان الذكر سداً في تلك الطريق ، فإذا كان ذاكرا دائما كاملاً كان سداً محكماً لا ينفذ فيه ، وإلا فبحسبه .

الثالثة والأربعون ــ أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى فالمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى ، قال تعالى ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى** ﴾
(طه : ١١٤)

يقول الحسن البصري إمام التابعين : « أحبُّ عباد الله إلى الله أكثرهم ذكراً وأتقاهم قلباً » .

وقال ذو النون المصري : « ما طابت الدنيا إلا بذكره ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه ، ولا طابت الجنة إلا برؤيته » .

يقول أبو سعيد الخراز رحمه الله : « إن الله تعالى عجَّل بأرواح أوليائه التلذذ بذكره والوصول إلى قربه ، وعجل بأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم وأجزل نصيبهم من كل كائن ، فعيش أبدانهم عيش الجنانيين (أهل الجنة) وعيش أرواحهم عيش الربانيين » اهـ .

* * *

وبعد بيان هذه الفوائد التى أفاض الله بها على قلب صاحبها ، نلتقى مع القرآن الكريم ، فنصل زحفنا المقدس بآياته البينات من سورة الحج .

قال تعالى

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

(الحج : ٣ ، ٤)

هاتان الآيتان الكريمتان بوضعهما فى هذا النسق الرتيب ، تدلان دلالة قاطعة على أن من الناس فريقاً طبع على الجدال بالباطل والخصومة الكاذبة والمراء بغير حق ، ولو كان ذلك فى حق الله .

ومع ذلك فإن الله لا يعجل كعجلة أحدنا ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣)

وروى الإمام البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، إنه ليشرك به ويجعل له الولد ويعافيهم ويرزقهم » .

ما أقبح الجدل إذا لم يكن المقصود به الوصول إلى الحق ، وما أشد قبحه إذا كان بغير علم ، بأن كان مبنياً على الجهل ، وأعدى أعداء الإنسان جهله ، وما أشد شناعته إذا كان بغير هدى ، بأن كان مبنيا على ضلال وبعد عن الحق . وما أشد جرمه إذا كان اتباعا لكل شيطان مريد من شياطين الإنس والجن ، وأشد من هذا كله أن يكون جدلاً فى الله من بعد ما استجيب له ، وظهرت آياته فى الآفاق والأنفس . وما أخطر الطريق إذا كان الجدل سيراً وراء شيطان كتب عليه أن كل من تولاه واتخذه ولياً له ومرشداً فإنه يضله ضلالاً بعيدا فى الدنيا ، ويهديه إلى عذاب السعير ؛ النار الشديدة فى الآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (النور : ٢١)

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر : ٦) .

جاءت هاتان الآيتان بعد قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج : ٢) لتفيد أن من الذين يجادلون فى الله ناساً يجادلون فى وقوع البعث ويعاندون ويكابرون .

قال تعالى :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (النحل : ٤)

وقال جل شأنه مبيناً خصومة ذلك الإنسان العنيد فى قوله :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس : ٧٧ — ٧٩)

روى الإمام البخارى رضى الله عنه قال : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى : « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » .

● ● ●

الفصل الثانى

البعث فى القرآن الكريم

- البعث حق .
- منهج القرآن فى إثبات البعث .
- شبه المنكرين للبعث و دحضها .

البعث حق

إن قضية البعث فى القرآن جاءت مقترنة بتوحيد الله والإيمان به .

من ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (النساء : ٥٩) وقوله جل شأنه ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (البقرة : ٦٢) إلى غير ذلك من الآيات .

ولأهمية البعث نرى أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ بالقسم فى ثلاثة مواضع ، وكلها فى البعث .

قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (يونس : ٥٣)

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سبأ : ٣)

وقال جل جلاله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن : ٧) .

من هنا نعلم أن الله تبارك وتعالى أكد هذه القضية توكيدا لا يحتمل أى لبس ولا غموض .

إن الله جل جلاله ينبه أصحاب الأذهان الغافلة والقلوب الجاحدة إلى ما ردده المنكرون من قبل فيقول ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل : ٣٨ — ٤٠)

وإذا كان القرآن الكريم قد تناول هذه القضية فى أعلى طبقات البلاغة والقوة ، فإنه يعرض للبعث فى أساليب غاية فى الجلال والجمال والعظمة .

وقد عرض القرآن مشهداً فى سورة الرعد حيث قدم الأدلة القاطعة على قدرة الله فى العالم العلوى والأرضى ، ثم عقب على ذلك بقضية البعث ، وألقى باللائمة على منكريها وجاحديها .

قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ تَعْجَبْ فعجَبٌ قَوْلُهُم أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (الرعد : ٥)

وفى سورة « ق » يعرض القرآن القضية ، ثم بعد ذلك يقيم الأدلة على القدرة الفائقة التى لا يقف أمامها شىء .

قال سبحانه : ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**)

(ق : ١ ــ ٣)

يرد القرآن على هذه الدعوى ردا حاسما فيقول تعالى : ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ** ﴾ (ق : ٤ ، ٥)

ثم يقيم الأدلة الباهرة فيقول سبحانه : ﴿ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾

(ق : ٦ ــ ١١)

فأنت ترى فى هذا المشهد القرآنى من سورة « ق » كيف سجل القرآن العظيم كلام المنكرين الجاحدين الذين ظنوا أن الرجع والإعادة والإحياء بعد الموت بعيد ، فأقام القرآن من الأدلة ما يثبت أن الإعادة أهون من البدء ، وأن الإيجاد بعد الفناء أيسر من الخلق من العدم .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (ق : ٦)

ثم يسأل القرآن ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾

(النازعات : ٢٧ — ٣٢) .

ثم يجيب على هذا السؤال فى روعة وجلال ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

(غافر : ٥٧) .

ثم يبين أن الذين لا يعرفون هذا قوم أصيبوا بعمى القلوب وطمس البصيرة .

فيقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِىءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (غافر : ٥٨) .

ثم يخلص من هذا إلى نتيجة تقرر أن البعث حق لا ريب فيه ، على الرغم من جحود الجاحدين فيقول جل جلاله ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (غافر : ٥٩) .

وبعد أن يقيم القرآن أدلة القدرة الفائقة من رفع السماء وبسط الأرض : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ (ق : ٧ — ١١) .

بعد ذلك يقيس البعث على هذه الآيات المشاهدة أمام العين التى لا ينكرها عاقل ولا يجحدها من رُزق أدنى علم فيقول سبحانه فى كلمة موجزة المبنى عظيمة المعنى ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى الخروج من القبر بعد الموت يوم البعث مثل ذلك .

فكما أن ذلك الذى سبق ذكره واقع ومشاهد فالبعث مثله ، وكما أنكم لا تنكرون آيات الله فى كونه من سمائه إلى أرضه ، ومن عرشه إلى فرشه ، فإن العدل والمنطق يقتضيان منكم ألا تنكروا البعث بعد الموت ، إذ إن الذى أخبر عنه هو الله المحيى المميت ، المبدىء المعيد ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، الواجد الماجد ، الواحد القهار ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق البارىء ، المصور العزيز ، الحكم العدل ، الرزاق ذو القوة المتين ، الذى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه .

وفى سورة النبأ وهو البعث ، يصدر القرآن هذه السورة الكريمة بسؤال ثم يجيب عنه ، ويعرض بعد ذلك الأدلة على القدرة الفائقة ، ثم يعقب بالنتيجة ، كل هذا فى سلك فريد ، وعقد نظيم ، يأخذ بالألباب ، ويدهش العقول لعظمته .

اقرأ قول الله جل جلاله :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ. * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * والْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾

(النبأ : ١ ـــ ١٦)

ثم يخلص إلى النتيجة بعد ذلك فى جلاء ووضوح فيقول سبحانه : **﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾**

(النبأ : ١٧ ـــ ١٨)

كل هذا يدور فى فلك السورة الكريمة التى تعرض للقضية فى جلاء ووضوح وقوة وحزم **﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ﴾** (النبأ : ١٧) .

ويؤكد هذا المعنى فى قوله ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۞ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الدخان : ٣٤ ــ ٣٦)

ويرد القرآن على هذا الإنكار فيقول :

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجرِمِينَ ۞ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ يَوْمَ لاَ يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الدخان : ٣٧ ــ ٤٢)

* * *

وإنه لمن الكلمات الجامعة التى بلغت أعلى طبقات البلاغة : ما جاء فى قوله تعالىَ : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لَميتونَ . ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون ﴾ (المؤمنون : ١٥ ، ١٦)

يبين لنا مولانا جل فى علاه : أن دنيانا هذه لا قرار فيها ولا استقرار ، إنما الإنسان فيها راحل منها إلى دار القرار .

﴿ يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربّك كَدْحاً فمُلاقِيه ﴾ (الانشقاق : ٦)

فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر . والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

جاء فى الحديث الشريف عن المعصوم ﷺ أنه قال : « والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً ، أو لنار أبداً » .

والبعث قضية من قضايا العقيدة ، لا يؤمن أحد إلا إذا آمن بأنه حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

ولما سبق فى علم الله تعالى أن هناك ناساً سيسألون هذا السؤال :

﴿ أإذا كُنّا ترابا أئنا لَفي خلق جديد ﴾ (الرعد : ٥) .

أقام الله الأدلة الكونية المنصوبة فى الآفاق وأقطار الكون ليقطع الطريق على هؤلاء المجادلين المعاندين المكابرين ، الذين يقحمون أنفسهم فى المتاهات التى لا نهاية لها وينسون أنفسهم .

يقول مولانا تبارك اسمه :

﴿ يا أيها الناسُ إنْ كنتم فى ريْبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مُضغةٍ مُخلَّقةٍ وغير مُخلَّقةٍ لِنُبيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مُسمّى ثم نُخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكى لا يعلمَ من بعد علمٍ شيئا ، وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربَتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ﴾ .

(الحج : ٥)

هذه الآية الرائعة الحاسمة الجازمة الباذخة الراسخة ، أنتجت خمس نتائج اجتمعت فى قوله تعالى :

١ــ ذلك بأن الله هو الحق .

٢ ــ وأنه يحيى الموتى .

٣ ــ وأنه على كل شىء قدير .

٤ ــ وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

٥ ــ وأن الله يبعث من فى القبور .

* * *

واسمع إليه تبارك اسمه وهو يقدم للبعث فى سورة الرعد ، فيقول عز من قائل :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * المر * تلك آياتُ الكتاب والذى أُنزِلَ إليك من ربك الحقُّ ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون * الله الذى رفع السماوات بغير

عَمَدٍ تَروْنها ثم استوى على العرش وسخَّر الشمس والقمر كُلٌّ يجرى لأجل مُسمىً يُدبِّرُ الأمرَ يُفَصِّلُ الآيات لعلكم بلقاء ربكم تُوقِنون * وهو الذى مَدَّ الأرضَ وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كُلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغْشى الليلَ النهارَ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفى الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يُسقى بماء واحد ونُفضِّلُ بعضَها على بعض فى الأكل إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾
(الرعد : ١ ــ ٤)

ثم يعقب سبحانه على تلك الآيات فيقول :

﴿ وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولُهم أإذا كُنَّا تُرابا أئنَّا لفى خَلْقٍ جديدٍ ﴾ (الرعد : ٥)

ثم يحكم الله تعالى على هؤلاء الحاقدين فيقول :

﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلالُ فى أعناقهم وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾ . (الرعد : ٥)

يقول الأستاذ عبد الله سراج فى كتابه « الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها » :

قال الله تعالى : **﴿ ثُمَّ إنكم بعد ذَلِكَ لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تُبْعَثُون ﴾** (المؤمنون : ١٥ ، ١٦)

إن من أصول الاعتقادات الإيمانية : الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يبعث الخلائق بعد موتها ، فيجمع أجزاءها بعد تفرقها ، ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها ، ويعيدها كما بدأها .

قال الله تعالى : **﴿ وهو الذى يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهْوَنُ عليه ﴾**
(الروم : ٢٧)

وقال تعالى : **﴿ كما بدأكم تَعُودُونَ ﴾** (الأعراف : ٢٩)

فهو سبحانه يعيد هذا الخلق بجواهره ، بل وأعراضه على المعتمد ، كما بدأه أول مرة ، وليس فى هذا شيء من المحالات العقلية ولا المناقضات الفكرية . وذلك أن العاقل إذا اتبع نظراته العابرة فى العالم الإنسانى ، وتكويناته الخلقية ، وتطوراته

وتقلباته فى تلك الأدوار ، وتغيراته فى تلك الأطوار ، وهكذا أجال نظره فى عالم النبات وانفلاق تلك النواة المدفينة فى بطن الأرض بقدرة البارى تعالى — عن شجرتها وفروعها وأغصانها وثمراتها ، ثم جعل ينتقل فى عجائب الأرض وعظمة السموات وما فيها من المبدعات ، فإنه حينئذ تتجلى له حقائق قدرة البارى تعالى ، ويشاهد آيات إبداعه وخلقه ، ويعلم يقينا أن من قدر على بدء الخلق لهو قادرٌ على إعادتهم بلا ريب .

* * *

منهج القرآن فى إثبات البعث

ولقد جاء القرآن العظيم بطرق واضحة تثبت أمر المعاد الجسمانى والروحانى ألا وهى طريقة البرهان وطريقة العيان . وليس بعد البرهان والعيان من دليل وتبيان . وتلك الحجج القرآنية هى المحجة البيضاء التى لا تعشو فيها الأبصار ولا تتخبط فيها العقول والأفكار .

ونحن نأتى بجانب منها إن شاء الله تعالى فنقول :

الطريقة الأولى : النظر فى الآيات الآفاقية والنفسية .

قال الله تعالى :

﴿ ق * والقرآنِ المجيدِ * بل عجبوا أن جاءهم مُنذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شىءٌ عجيب * أإذا مِتْنَا وكنا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ * قد علمنا ما تنقص الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظ * بل كذَّبوا بالحقِّ لما جاءهم فهم فى أمرٍ مَريجٍ * أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّنّاهَا وما لها من فُروجٍ * والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسىَ وأنبتنا فيها من كُلِّ زوجٍ بهيجٍ * تبصرة وذكرى لكل عَبْدٍ مُنِيب * ونزلنا من السماء ماءً مُبَارَكاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيدِ * والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ * رزقاً للعبادِ وأحيينا به بلدة مَّيْتاً كذلك الخروج * كذَّبت قبلهم قومُ نوح وأصحابُ الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كذب الرسل فحقَّ وعيد * أفعيينا بالخلق الأوَّل بل هم فى لَبْسٍ من خَلْقٍ جديد ﴾ . (ق : ١ ــ ١٥)

إذا أمعن القارىء فى هذه الآيات الكريمة ، وتدبر ما فيها ، يتضح له وجه المناسبات الحكيمة ، وأنها كلها براهين قطعية ، وأدلة عيانية ، شاهدة على أن الإعادة حق ؛ وأن الله على كل شىء قدير ، وأنه لا يعجزه شىء . وذلك أن

للإعادة أشباهاً ونظائر ، يتقلبون فيها ويشاهدونها بأعينهم ، فعلام يعجب الجاحدون ، وينكر المنكرون ؟

﴿ فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ * أإذا مِتْنَا وكنا تُراباً ذلك رَجْعٌ بعيد ﴾ (ق : ٢، ٣)

استبعدوا الرجعة بعد الموت ، وتفرق الأجزاء وبلاها ، فجاءهم الجواب :

﴿ قد علمنا ما تنقصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظ ﴾ (ق : ٤)

وذلك أن ما تأكله الأرض من أجزائهم هو معلوم عند الله تعالى ، لا يغيب مهما تباعد وتفرق ، فهو سبحانه يعلم كل جزء عن من انفصل ، وبمن كان اتصل وأن تلك الأجزاء كلها محفوظة فى كتاب جمعها كلها . فهى وإن غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة فى ذلك الكتاب الذى عنده سبحانه بذواتها وذراتها .

فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة ، فهذه السماوات والأرض ، أكبر خلقاً منهم وأشد .

فإن كانوا يرون أن الإعادة ليست أكبر من البدء ؛ فالذى قدر على البدء يقدر على الإعادة .

وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبر من البدء وأعظم ، فلقد خلق الله سبحانه ما هو أكبر منهم وأشد خلقاً منهم ، وهى السماوات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم .

وإلى هذا يرشد سبحانه :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بَنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرضَ مددناها وألقينا فيها رَواسىَ ﴾ (ق : ٦، ٧)

أى وهى الجبال التى نصبها سبحانه ، وأودع فيها ما أودع من خزائن ومعادن وخصائص .

﴿ وأنبتنا فيها من كُلّ زَوْجٍ بهيج * تبصرةً ﴾ للمستبصرين **﴿ وذكرى ﴾**

للمتذكرين وما يتبصر ويتذكر إلا كل عبد منيب .

ولذا قال سبحانه : ﴿ وذكرى لِكُلِّ عبد مُنيب ﴾ (ق : ٧، ٨)

ثم بين الله تعالى فى سياق الحجة على منكرى الإعادة بعد الموت ، فقال سبحانه :

﴿ ونزلنا من السماءِ ماء مُباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيد ـــ إلى قوله تعالى ـــ كذلك الخروج ﴾ . (ق : ٩ ـــ ١١)

وهكذا الدليل يثبت قدرة الله تعالى ، ويثبت عظمة القدرة الإلهية وسعتها .

وهذا الدليل يقرب أمر الإعادة ، ويبين أن لها نظائر وأشباها مشهودة أمامهم .

الحبة و النواة

وذلك أنه سبحانه أنبت فى هذه الأرض من حبة أو نواة دفينة فى بطنها أصنافاً من زروع وأشجار وثمار على مختلف ألوانها وطعمها وتنوع منافعها ، وذلك دليل باهر يبصر به أرباب البصائر ، ويستدل به أولو العقول على إثبات البعث وكيفية الإعادة لهذا الجسم الذى تحتفظ الأرض بأجزائه ، مهما تفرقت وتبددت وتباعدت .

ومن تلك الأجزاء الدفينة ينشىء الله تعالى النشأة الآخرة .

ولذا قال سبحانه : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أى مثل هذا الإخراج المشهود المعاين أمامكم من الأرض : الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ـــ فيخرجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها ودفنتم فى أنحائها وبطونها .

* * *

أطوار خلق الإنسان

إن الله خلق الإنسان أولاً نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم جنيناً ثم طفلاً ، ثم صبياً ، ثم مراهقاً ثم شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، ثم هرماً فانياً .

ومن المقطوع البديهى أنه لم ينتقل من طور إلى طور دفعة واحدة ، بل مرت عليه لحظات وساعات فنيت منه أجزاء ، وتجددت فيه أجزاء أخرى شيئاً فشيئاً تدريجياً ، حتى انتقل إلى الطور الثانى ، وهكذا دواليك ، ولكن لم يتبين له ذلك حتى مضت مدة طويلة ، فبان له الأمر ، وظهر فيه التطوير والتبديل والتجديد والتحويل .

قال الله تعالى : ﴿ **ما لكم لا تَرْجُون لله وَقاراً * وقد خَلَقَكم أطْواراً** ﴾ (نوح :١٣، ١٤)

وقال الله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالة من طين * ثم جعلناهُ نُطْفَةً فى قرارٍ مكينٍ * ثم خلقنا النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتبارك الله أحسنُ الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون** ﴾ (المؤمنون : ١٢ ـــ ١٦)

أى فلا فرق بين تلك الأطوار التى يقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه وتعالى ، ولا يعجزه شيء فى ذلك ، بل إن جميع ذلك يسير عليه ، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير .

وقال الله تعالى : ﴿ **أوَ لمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ منْ نطفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مبين * وضربَ لنا مثَلاً ونسى خلْقه قال من يُحيى العظامَ وهى رميمٌ قل يحييها الذى أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خَلْقٍ عليم * الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخضَرِ ناراً فَإذَا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أو ليس الذى خلقَ السماواتِ والأرضَ بِقادرٍ على أن يَخلقَ مثلَهُم بلى وهو الـخلاَّقُ العليمُ** ﴾ (يس : ٧٧ ـــ ٨١)

المجادلة فى البعث

روى ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العاص بن وائل الجاهلى ، أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله هذه بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » فنزلت هذه الآيات رداً عليه وعلى أمثاله .

وروى أن القائل ذلك هو أبىّ بن خلف ، فجاء الجواب القرآنى على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه :

١ ــ أن هذا الضال استبعد الإعادة والحياة فى عظام رفات وترك نفسه من الاعتبار . فإن الله تعالى الذى خلق الإنسان ونقله من العدم إلى الوجود ــ هو قادر على الإعادة . فما لهذا الضليل نسى خلقه من العدم ، فراح ينكر حياته بعد الموت ؟ .

٢ ــ ﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أوَّلَ مَرَّة ﴾ فإن إيجاد البادىء أصعب فى مطرد العادة والعرف من رد شىء كان إلى ما كان عليه من ذى قبل : يعنى أن القادر على البداية هو قادر من باب أولى على الإعادة .

٣ ــ ﴿ وهو بكل خَلْق عليم ﴾ (يس : ٧٩) فإن جميع أجزاء الإنسان مهما تفرقت وتباعدت ، فإنها معلومةِ عند الله تعالى ، محفوظة عنده ، ﴿ لا يضلُّ ربى ولا ينسى ﴾ (طه : ٥٢) ولا يلتبس عليه شىء .

٤ ــ ﴿ الذى جعلَ لكم من الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منهُ تُوقِدون ﴾ (يس : ٨٠) وفى هذا دليل على أن هناك قوة تتغلب على المتنافرين المتناقضين ، وهما : الأخضر الحى ، والنار اليابسة ــ ألا وهى : قدرة الله تعالى ، الذى يستخرج الشىء من ضده ، بل ومن نقيضه .

٥ ــ أن الذى أبرز النار التى كانت كامنة فى الشجر والحجر ، فأظهرها بالقدح ، وأشعلها بالنفخ ــ هو قادر على أن يبرز الميت الدفين فى التراب

الكامن فى الخبايا الأرضية ، بسبب أنه سبحانه يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ فى الصور ، والنقر فى الناقور .

الطريقة الثانية من الحجج التى أقامها الله تعالى على عباده ، وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم ، هى : طريقة الشهود والعيان . وهى أن الله تعالى أجرى فى ذلك أموراً فعلية ، حيث أمات فيها طوائف من الإنسان ومن الحيوان ومن الطيور ، ثم أحياهم بعد موتهم على مشهد ومرأى من الناس ليعلموا أن الذى أعاد ذلك بعد الموت ، لهو قادر على أن يعيد الأموات كلهم بعد موتهم .

وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع ، وبين أنها أمور معلومة ومشهودة لدى الأمم الماضية .

قوم أحياهم الله بعد موتهم

فمن ذلك : القوم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ **ألم تَرَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون** ﴾ (البقرة : ٢٤٣)

قال الحافظ ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمانْ بنى إسرائيل ، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية ، فنزلوا وادياً أفيح ــ واسعاً ــ فملأوا ما بين عدوتيه ، فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه ، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم . ثم إنهم تفرقت أجزاؤهم وتمزقت . فلما كان بعد دهر ، مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له « حزقيل » فسأل الله تعالى أن يحييهم على يديه ، فأجابه إلى ذلك . وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى ﴿ **إن الله لذو فضل على الناسِ** ﴾ .

أي فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدامغة ، التى تثبت أن الله تعالى قادر على إعادة الأموات بلا ريب .

أصحاب موسى عليه السلام

ومن ذلك أيضاً : السبعون الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام للميقات الذى وعده الله تعالى أن يكلمه فيه ، وينزل عليه التوراة ، أماتهم الله تعالى ثم أحياهم .

قال تعالى : ﴿ **وإذْ قلتم ياموسى لن نُؤمِن لك** ﴾ أى بأن الله تعالى أعطاك التوراة ، أو أن الله تعالى قد كلمك .

﴿ **حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقةُ** ﴾ أى نار من السماء أحرقتهم ، أو صيحة سماوية خروا لها صعقين ميتين يوماً وليلة .

﴿ **وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لَعلَّكم تَشْكُرون** ﴾ (البقرة :٥٥ ، ٥٦)

وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى عليه الصلاة والسلام ومناشدته ربه .

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم فى الدنيا مرتين مع قوله تعالى : ﴿ **ربَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفْنا بذُنوبنا** ﴾ (غافر : ١١) لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم ، وإنما هو موت عقوبة ، فكأنه ليس بموت ، أى أنه عارض أعقبه حياة فى الدنيا نفسها لا فى عالم آخر ، فلا يختلف مع الآية الثانية .

قصّة العزير

ومن ذلك أيضاً : قصة العزير عليه السلام ، أماته الله تعالى مائة عام ثم

بعثه . قال الله تعالى :

﴿ أو كالذى مَرَّ على قرية وهى خاوية على عُروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته اللهُ مائةَ عام ثم بعثه قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يومٍ قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك وَلِنجعلك آيةً للناسِ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ (البقرة : ٢٥٩)

قال جمهور السلف رضى الله عنهم : إن هذا الذى مر على قرية هو العزير أحد أنبياء بنى إسرائيل ، مر على بلد بيت المقدس ، بعدما دخلها بختنصر وخربها ، فرآها العزير وهى خاوية على عروشها ، أى ساقطة على سقوفها باعتبار أن سقوف البيوت تسقط أولاً ، ثم تتهدم الجدران وتتساقط عليها ، أى على السقوف ﴿ قال أنى يحيى هذه اللهُ بعد موتها ﴾ ؟

قال ذلك استعظاماً للأمر ، وتفخيماً وتعجباً من عظمة قدرة الله تعالى القدير على كل شىء ، لا من باب الاستبعاد والإنكار .

وذلك نظير قول زكريا عليه الصلاة والسلام ، فيما أخبر الله تعالى عنه لما بُشّرَ بالغلام : ﴿ قال رَبِّ أنى يكونُ لى غُلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغتُ من الكبر عِتيًا ﴾ ؟ (مريم : ٨)

يعنى أن ذلك الأمر عظيم ، جدير بأن يتعجب من عظمته وفخامته .

﴿ فأماته الله مائةَ عام ثم بعثه ﴾ أحياه بعد موته .

﴿ قال كم لبثتَ ﴾ ؟ وهذا السؤال ورد لإظهار عجز العزير وغيره عن الإحاطة بشؤون الله تعالى وعظيم قدرته .

﴿ قال لبثتُ يوماً أو بعضَ يَوْمٍ ﴾ .

وإنما قال ذلك لأنه مات ضحى النهار وبعث بعد المائة قبل الغروب ، فقال قبل أن ينظر إلى الشمس : ﴿ يوماً ﴾ ثم التفت فرأى أن الشمس لم تغرب ، بل آثار أنوارها على الأماكن العالية ، فقال : ﴿ أو بعضَ يوم ﴾ على طريق

الإضراب .

﴿ **قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلى طعامِكَ وشرابك لم يَتسنَّه** ﴾ أى لم يتغير فى هذه المدد الطويلة والسنين العديدة . وكان طعامه على ما روى عنباً وتيناً ، وشرابه عصيراً أو لبناً .

﴿ **وانظر إلى حِمارِكَ** ﴾ كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله .

وهكذا أمره الله تعالى أن ينظر أولاً إلى طعامه وشرابه ، حيث إنهما لم تتغير ، حتى يبين له أن الذى حفظ له طعامه وشرابه من التغير والفساد على طول السنين المائة ، هو الذى حفظ العزير من التغير ، ومن أن تأكله الأرض وتفسده على السنين العديدة ؛ بل أبقى له جسمه بعد موته وحفظه من البلى ، لأن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

وأمره الله تعالى أن ينظر ثانياً إلى حماره ، وقد بلى وتفرق وتمزق ، ليزداد يقيناً بأنه مر عليه مائة سنة .

ثم قال تعالى له : ﴿ **وَلنجعلك آيةً للناس** ﴾ أى عبرة ودليلاً على قدرة الله تعالى ، على إحياء الأموات وبعثها ، وأنه سبحانه قادر أن يحفظ أجساد من أراد حفظهم ، وأنه سبحانه قدير على كل شيء ، ولا يعجزه شيء .

ثم قال له : ﴿ **وانظرْ إلى العظام** ﴾ أى عظام الحمار البالى المتفرقة أوصاله وعظامه ﴿ **كيف نُنْشِزُهَا** ﴾ أى كيف نرفعها من الأرض ونركبها فوق بعضها ونعيدها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ **ثم نكسُوها لحماً** ﴾ أى نستر العظام باللحم كما نستر الجسد باللباس .

﴿ **فلمَّا تبينَ له** ﴾ اتضح له اتضاحاً تاماً ، وعاين كيفية الإحياء ﴿ **قال أعلمُ أن الله على كل شيءٍ قديرٌ** ﴾ (البقرة : ٢٥٩) وذلك علم رؤية وعيان ، فوق ما أنا عليه من اليقين والإيمان .

* * *

إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام

ومن ذلك : قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا إبراهيم ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام . وقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم بعد قصة العزير عليه السلام .

قال الله تعالى :

﴿ وإذ قال إبراهيمُ رَبِّ أرِنى كيف تُحيى الموتى قال أو لَمْ تؤمن قال بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبى قال فخذ أربعةً من الطيرِ فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعلْ على كُلِّ جبلٍ منهن جُزْءاً ثم ادعهن يأتينك سَعْياً واعلم أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾ (البقرة : ٢٦٠) .

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضى الله عنهم فى سبب سؤال الخليل — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى .

فجاء عن الحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين .

وقد جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الخبر كالمعاينة ، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يُلْقِ الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » .

وروى عن ابن عباس والسدى وسعيد بن جبير أن الملك بَشَّرَ الخليل عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلاً ، وأنه يجيب دعوته ، وأنه يحيى الموتى بدعائه ، فلذلك سأل الله ما سأل .

وروى عن محمد بن إسحاق أن سبب سؤال الخليل ذلك — هو منازعة النمرود إياه فى إحياء الموتى ، حين قال له الخليل : **﴿ رَبِّىَ الذى يُحيى ويميتُ ﴾** (البقرة : ٢٥٨) ورد على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم هو إحياء له ، وأن تنفيذ

القتل فيه إماتة له ، وراح النمرود يتوعد الخليل بالقتل إن لم يحيي الله الموتى على يد الخليل بحيث يشاهد النمرود ذلك ، فدعا سيدنا الخليل ربه حينئذ فقال : ﴿ رَبِّ أرني كيف تُحيي الموتى قال أوَ لم تُؤْمن ﴾ أي ألم تعلم وتؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني عنه ؟ .

أو لم تؤمن بأني قد اتخذتك خليلا ؟

أو لم تؤمن بأن الجبار النمرود لا يستطيع أن يقتلك .

﴿ قالَ بلى ﴾ أي أنا مؤمن بذلك ﴿ولكنْ ليطمئِنَّ قلبى ﴾ (البقرة : ٢٦٠) بانضمام رؤية العيان إلى الإيمان والإيقان بأنك قادر على ذلك ، وليطمئن قلبى بالخلة التي تفضلت بها عليَّ ، وأكرمتنى بها وبلوازمها ، من إجابة الدعاء وما وراء ذلك . أو ليطمئن قلبى بأن الجبار لا يقتلنى بعد ما يشاهد كيفية إحيائك للموتى على يدى .

وعلى كل ، فسؤال الخليل لم يكن عن شك أصلاً ، بدليل قوله : ﴿ أوَ لَمْ تُؤْمن قال بلى ﴾ أي : أنا مؤمن ﴿ ولكنْ ليطمئنَّ قلبى ﴾ .

وقد قطع النبى ﷺ دابر الوهم الذى يتلاعب فى بعض الخواطر ، فقال كما فى الصحيحين عن أبى هريرة : « نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى » .

ويعنى بذلك ﷺ : أنا لم نشك أصلاً ، فلم يشك إبراهيم عليه السلام أصلاً . فكأنه ﷺ يقول : إنْ شَكَّ إبراهيم فنحن أحق بالشك ، ولكنا نحن لم نشك ، فإبراهيم لم يشك .

صلوات الله تعالى على حبيبه وخليله وآلهما أجمعين .

قال سبحانه : ﴿ فخذ أربعةً من الطير ﴾ أى مختلفة الأنواع . وإنما خص الطير بذلك لسهولة ما يفعل بها من التجزئة والتوزيع والتفرقة على الجبال ؛ ففى جمعها وإعادتها وإحيائها مزيد ظهور لقدرته سبحانه وتعالى .

﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ أى قطعهن أجزاء واضممهن ﴿ إليك ﴾ واجمعهن ﴿ ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهن جُزْءاً ﴾ .

وبهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام أن يذبح تلك الطيور ويقطعها إربا إربا ، ويجزئها ما استطاع ، ويخلطها إلى بعضها ؛ ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً .

﴿ ثم ادْعهنَّ يأتينك سَعْياً ﴾ أى ساعيات مسرعات فى العدو والعودة إليك .

والحكمة فى سعى الطيور إليه مشياً دون الطيران إليه : هى أنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور الميتة التى ذبحها ومزقها ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيزٌ حكيم ﴾ (البقرة : ٢٦٠) غالب لا يعجزه شيء ، حكيم يضع الأشياء فى مواضعها .

وفى هذا دليل على أن هذا الأمر كان على مشهد من الناس ، وعلى مرأى من النمرود ليكون حجة للخليل عليه السلام ، قائمة على النمرود وأتباعه .

ولذلك جاءت هذه القصة بعد ما ذكر الله تعالى المحاجة التى جرت بين الخليل والنمرود .

قال سبحانه :

﴿ ألم تَرَ إلى الذى حاج إبراهيمَ فى ربِّه أن آتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيمُ ربى الذى يحيى ويميتُ قال أنا أحيى وأميت ﴾ (البقرة : ٢٥٨) الآية .

فهذه وقائع ثابتة أجراها الله تعالى وأوقعها ليقيم الحجة على العباد ، وليبين لهم أنه قادر على إحياء الموتى سبحانه ، وإعادتهم إلى حياة جديدة فى عالم آخر يوم القيامة ، أى :

﴿ يوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين ﴾ (المطففين : ٦) .

* * *

أدلة أخرى

وقد حشد القرآن الكريم آيات بينات لهذه المعركة التى دارت رحاها بين العقيدة المؤمنة والأخرى الجاحدة ، وكلها تدور حول قضية البعث ، وهذه الأدلة آيات ناطقات بعظمة الله وجلال إبداعه فى كونه ، وبعد حشد الأدلة يذكر البعث ويقرره .

من ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(الرعد : ١ — ٤)

بعد حشد هذه الأدلة البينة يعرض القرآن لقضية البعث فيقول ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلاَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الرعد :٥) .

وكأنى بالقرآن الكريم يلقى باللائمة على هؤلاء الذين اتضحت أمامهم الأدلة المنصوبة فى عالم السماء والأرض كيف يسألون هذا السؤال العجيب وهم يعلمون علم اليقين أن الآيات على قدرة الله تحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ؟ .

كيف يسألون هذا السؤال وهم يعتقدون أن الذى أخبر بالبعث بعد الموت هو الذى نصب الآيات فى الآفاق والأنفس . ومن هنا فقد حكم على هؤلاء الجاحدين بثلاثة أشياء ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (الرعد : ٥)

نعم إن إنكار البعث كفر بالله ، لأنه تكذيب لإخبار الله به فى القرآن .

واستمع إلى قول هذا الرجل الذى قص القرآن قصته مع صاحبه وهو يحاوره والذى جاء فى سورة الكهف : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا ﴾ (الكهف : ٣٢ ـــ ٣٦)

فماذا قال له صاحبه رداً على قوله ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ ؟

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ (الكهف : ٣٧)

فحكم عليه بالكفر لإنكاره البعث ﴿ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ﴾ (الكهف : ٣٨)

إن لنا فى آيات سورة الرعد عجباً عندما نتأملها ونتأمل القدرة الفائقة . عندئذ لا يمكن أن يكون للشك سبيل فى قلوب ذوى البصائر .

﴿ الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ (الرعد : ٢)

إن السماوات عالم عظيم يدهش العقول :

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ (الملك : ٥)

ولما كانت قضية البعث من أكثر القضايا جدلاً عند ذوى القلوب المريضة ، فإن القرآن الكريم بسط القول فيها بسطاً لا يكاد يدع لمرتاب شبهة ، إلا أن يكون فى أذنيه وقر ، وقلبه فى أكنة ، ومن بينه وبين الحق حجاب .

نرى القرآن الكريم فى بعض مواضعه يقدم الأدلة على القضية ، وأحيانا يقدم القضية ثم يقيم الأدلة عليها .

ففى سورة الحج يقدم القرآن العظيم الأدلة ، ثم يذكر النتيجة .

عالم الأرحام

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخلَّقةٍ وغير مُخلَّقَةٍ لنُبينَ لكم ونقرُّ فى الأرحام ما نشاءُ إلى أجل مُسمّى ثم نُخرجكم طفلاً ثم لتبلغُوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكى لا يعلمَ من بعد علمٍ شيئا وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كُلِّ زوج بهيج** ﴾ (الحج : ٥)

ثم يستنتج القرآن من هذه الأدلة خمس نتائج :

﴿ **ذلك بأن الله هو الحقُّ** ﴾ .

﴿ **وأنه يحيى الموتى** ﴾ .

﴿ **وأنه على كُلِّ شىءٍ قديرٌ** ﴾ .

﴿ **وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها** ﴾ .

﴿ **وأن الله يبعثُ مَنْ فى القُبُورِ** ﴾ (الحج : ٦ ، ٧) .

وهذه أضواء فى تفسير تلك الآيات البينات ، يذكرها لنا العلامة ابن كثير فيقول :

لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته

تعالى على المعاد ، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال :

﴿ يا أيها الناسُ إنْ كنتم فى رَيْبٍ ﴾ أى فى شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فإنَّا خلقناكم من تُرابٍ ﴾ أى أصل برئه لكم من تراب ، وهو الذى خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نُطفةٍ ﴾ أى ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من عَلقةٍ ثم من مُضْغةٍ ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة (قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط) ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم من مضغة مُخلَّقةٍ وغيرِ مخلقةٍ ﴾ أى كما تشاهدونها .

﴿ لنبينَ لكم ونقرُّ فى الأرحام ما نشاءُ إلى أجل مُسمّى ﴾ (الحج : ٥) أى وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ مُخلَّقةٍ وغير مُخلَّقةٍ ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق .

فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسواها ، كما يشاء الله عز وجل : من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقى أو سعيد ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق :

« إن خَلْقَ أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات : فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث داود بن أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه

فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة ، لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دماً . وإن قيل : مخلقة قال : أى ربِّ ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله ، فيقال : من رازقك ؟ فتقول : اللهِ ، فيقال له : اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة . قال : فتخلق فتعيش فى أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك . ثم تلا عامر الشعبى ﴿ **يا أيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ من البعث فإنا خلقناكم من تُرابٍ ثُمَّ من نُطْفَةٍ ثم من عَلقةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقَةٍ** ﴾ .

فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً . وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار ، عن أبى الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد ، يبلغ به النبى ﷺ قال : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين يوما أو خمس وأربعين فيقول : أى ربِّ أشقى أم سعيد ؟ فيقول الله ويكتبان . فيقول : أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان . ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ، ثم تُطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص » .

وزرواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ، ومن طريق آخر عن أبى الطفيل بنحو معناه .

وقوله ﴿ **ثم نُخْرجكم طِفْلاً** ﴾ أى ضعيفاً فى بدنه وسمعه وبصره ، وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويلطف به ، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار . ولهذا قال ﴿ **ثم لِتَبلغُوا أشدكم** ﴾ أى يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر . ﴿ **ومنكم مَنْ يُتوفَّى** ﴾ أى فى حال شبابه وقواه . ﴿ **ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمرِ** ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والضعف : ضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من ضعف الفكر ، ولهذا قال ﴿ **لِكَيْلا يعلمَ من بعدِ عِلْمٍ شيئاً** ﴾ (الحج : ٥) .

كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعفٍ ثم جعلَ من بعد ضعفٍ قُوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشَيْبةً يخلقُ ما يشاءُ وهو العليمُ القديرُ ﴾ .
(الروم : ٥٤)

دلالة إحياء الأرض على البعث

وقوله ﴿ وترى الأرضَ هامدةً ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدى : ميتة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كُلِّ زوج بهيج ﴾ (الحج : ٥) أى فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ﴿ وربت ﴾ أى ارتفعت لما سكن فيها من الثرى : ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتتْ من كُلِّ زوج بهيج ﴾ أى حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحقُّ ﴾ أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء . ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ (الحج : ٦) أى كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كُلِّ شىءٍ قدير ﴾ (فصلت : ٣٩) .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكُونُ ﴾ (يس : ٨٢)

﴿ وأن الساعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ﴾ أى كائنة لا شك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعثُ مَنْ فى القبور ﴾ (الحج : ٧) أى يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمماً ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى :

﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسى خَلْقَهُ قال مَنْ يُحيى العِظامَ وهى رميمٌ * قُلْ يُحييها الذى أنشأها أول مَرَّةٍ وهو بكل خَلْقٍ عَليم * الذى جعلَ لكم من الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدون ﴾ (يس : ٧٨ — ٨٠)

والآيات فى هذا كثيرة .

قال الإمام أحمد : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلى واسمه لقيط بن عامر أنه قال يارسول الله : أكُلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به ؟ قلنا : بلى . قال : « فالله أعظم » قال : قلت يا رسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى أهلك ممحلاً » ؟ قال : بلى . قال : « ثم مررت به فاهتز خضِرا ؟ قال : بلى . قال : « فكذلك يحيى الله الموتى » وذلك آيته فى خلقه .

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به .

ثم رواه الإمام أحمد أيضاً : حدثنا على بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبى رزين العقيلى قال : أتيت رسول الله ﷺ وقلت : يا رسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : « أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور » والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبى الحجاج عن معاذ بن جبل قال : « من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور دخل الجنة » .

وهكذا انتهى النموذج الأول من نماذج إثبات البعث فى القرآن الكريم بتقديم الأدلة ، ثم إثبات النتيجة .

✿ ✿ ✿

أما النموذج الآخر ، فإنه يبدأ بقضية البعث ، ثم يقيم الأدلة الكونية والآفاقية على أنه حق واقع .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أو لم يَرَ الإنسانُ أنّا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو

خَصيمٌ مُبينٌ * وضربَ لنا مثلاً ونسى خَلْقه قال مَنْ يُحيي العظامَ وَهى رميمٌ ﴾ ؟ (يس : ٧٧ ، ٧٨)

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة :

١ ــ **﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أول مَرَّة وهو بكل خَلْقٍ عليم ﴾** .

٢ ــ **﴿ الذى جعلَ لكم من الشجر الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون ﴾** .

٣ ــ **﴿ أوَليس الذى خَلَق السماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أنْ يخلق مثلهم بلَى وهو الخلاَّق العليم ﴾** .

٤ ــ **﴿ إنما أمره إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكُون ﴾** .

٥ ــ **﴿ فَسُبحان الذى بيده مَلَكوتُ كُلِّ شىء وإليه تُرْجعون ﴾** (يس : ٧٩ ــ ٨٣) .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاماً جليلاً وجميلاً .

يقول رحمه الله تعالى :

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة : « جاء أبىّ بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ، ونزلت هذه الآيات من آخر يس **﴿ أوَ لم يَرَ الإنسانُ أنا خلقناهُ من نُطْفةٍ .. ﴾** والألف واللام فى الإنسان للجنس يعم كل منكر للبعث .

قوله تعالى : **﴿ أنّا خلقناهُ من نُطْفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ ﴾** أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين ، كما قال عز وجل : **﴿ ألم نخلقكم من ماءٍ مهينٍ * فجعلناهُ فى قرارٍ مكينٍ * إلى قَدرٍ مَعْلومٍ ﴾** (المرسلات : ٢٠ ــ ٢٢)

وقال تعالى : ﴿ إنّا خلقنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمْشاجٍ ﴾ (الإنسان : ٢) أى من نطفة من أخلاط متفرقة . فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ .

كما قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبو المغيرة حدثنا حريث حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : ابن آدم : أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيتَ بين بُرْديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدق وأنَّى أوان الصدقة ؟ .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُحيى العظامَ وهى رَميمٌ ﴾ (يس : ٧٨) أى إنه — أى الإنسان الكافر — استبعد إعادة الله تعالى ذى القوة العظيمة التى خلقت السماوات والأرض — للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده .

ولهذا قال عز وجل : ﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أولَ مَرَّةٍ وهو بكُلِّ خَلْقٍ عليم ﴾ (يس : ٧٩)

أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته ﷺ يقول : « إن رجلاً حضره الموت . فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا متّ فاجمعوا لى حطبا كثيرا جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت ، فخذوها فدقوها فذروها فى اليمّ ، ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله عز وجل له » .

فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فى يوم رائح ، أى كثير الهواء ، ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له.

وقوله تعالى : ﴿ **الذى جعلَ لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تُوقدون** ﴾ (يس : ٨٠) أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فَعَّال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شىء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ **الذى جعلَ لكم من الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون** ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر ، قادر على أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء .

✿ ✿ ✿

تكذيب الجاحدين

ثم إنه سبحانه بين فى قوله : ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوح ﴾ (ق : ١٢) الآيات ـــ أن إنكار المعاد وتكذيب الرسل : هو عادة كل جبار عنيد ، يكذب بالحق بعد ما تبين ، وينكر الواقع بعد ما اتضح ، فلا فائدة فى الجدل معه فإنه لا يستخرج منه العناد إلا سطوة رب العباد ، وأخذه بالعذاب والعقاب ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّ وعيد ﴾ (ق : ١٤) .

ثم بين سبحانه وتعالى دليلاً نفسياً على إثبات الإعادة لهذا الخلق ، بأنه سبحانه لما بدأ هذا الخلق لم يعى ، ولم يمسسه لغوب ولا تعب ، فيعجز عن إعادته ثانياً .

فإن كانوا قد عموا وصموا عن الأدلة السابقة كلها : السماوية والأرضية ، فليفكروا فى أنفسهم ، وليتعقلوا فى نشأتهم الحاضرة التى هم فيها ، فإنهم الآن يتقلبون فى خلق جديد يتجدد عليهم . غير أنهم قد التبس الأمر عليهم ، فظنوا أنهم هم فى كل حال ، وأنهم لا يعتريهم تبديل ولا تحويل ولا تخليق جديد . ولكن الأمر ليس بذلك ، بل إنهم فى كل لحظة ، بل فى أقل من أجزاء اللحظة ، تفنى منهم أجزاء خلقية ، وجواهر فردية ، ويخلق الله تعالى غيرها ، ويجدد عليهم وجودها ، وهكذا .

وهذا الأمر لا يخالف فيه إلا جاهل مكابر .

شبه المنكرين و دحضها

يقول الأستاذ عبد الله سراج الدين تحت عنوان « شبه المنكرين للإعادة وبطلانها » :

لقد أزال الله تعالى شبه المنكرين للإعادة وأبطلها كلها ، وذلك أن شبه

المنكرين للإعادة ترجع إلى ثلاثة أنواع :

الأول : اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض ، واختلاطها بأجزاء أخرى ، فكيف يحصل التمييز بينهما ؟

الثاني : أن القدرة لا تتعلق بذلك في زعم المنكرين ، وأن ذلك غير ممكن في زعمهم .

الثالث : زعم المنكرين أن الإعادة لا فائدة منها ، وأن الحكمة تقتضي دوام هذا النوع الإنساني جيلاً بعد جيل هكذا أبداً على وجه البقاء .

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد مبنية على ثلاثة أصول ، بها أزاح الله تعالى شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة .

أولاً : تقرير القرآن الكريم سعة علم رب العالمين ، وإحاطته بكل شيء وأنه لا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه شيء ، فقال سبحانه : ﴿ **قد عَلِمنَا ما تنقصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظٌ** ﴾ (ق : ٤) أي فلا يلتبس علينا شيء ، ولا يغيب عنا جزء ، بل نحن بكل جزء عالمون ، وله حافظون في عالم عندنا . فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم فهي لا تغيب عنا ، بل هي محفوظة لدينا .

ثانياً : تقرير القرآن الكريم كمال قدرة رب العالمين ، وأنه لا يعجزه شيء .

قال تعالى : ﴿ **أوَ ليسَ الذى خلقَ السماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلقَ مثلهم بلى وهو الخلاّقُ العليم** ﴾ (يس : ٨١) أي فالذي خلق ما هو أكبر من الإنسان وأشد ، وهو السماوات والأرض هو قادر على إعادة هذا الإنسان ، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته ، ولئن فرض أنها أعظم من البدء ، فلقد خلق ما هو أعظم وأكبر من الإنسان وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان .

﴿ **إنما أمره إذا أرادَ شَيْئا أن يقول له كُنْ فيكُون** ﴾ (يس : ٨٢)

ثم إنه أرانا أمورا واقعية مشهودة في الإنسان والحيوان والطيور ، أماتها وفرق أجزاءها ، ثم أعادها وأحياها ، فذكر لنا قصة الذين أماتهم وهم ألوف ثم أحياهم ، وقصة السبعين كما تقدم ، وقصة العزير عليه السلام ، ونحوها كما تقدم ،

ليكون ذلك حجة مشهودة ، دالة على قدرته سبحانه على إحياء الموتى .

ثالثا : تقرير القرآن الكريم كمال حكمة رب العالمين ، وأن من مقتضى حكمته أن يعيد الخلق ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، وليأخذ الحق من الظالم للمظلوم ، ومن الباغى لمن بغى عليه ، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب ، فهو سبحانه لم يخلق العالم عبثاً ، بل خلق العالم بالحق ، ولا بد أن ينتهى أمر العالم للحق .

قال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما لاعبين** ﴾ (الدخان : ٣٨)

وقال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وإنَّ الساعةَ لآتية فاصفح الصفحَ الجميلَ** ﴾ (الحجر : ٨٥)

وقال تعالى : ﴿ **أَفَحسبتم أنما خلقناكم عَبثاً وأنكم إلينَا لا تُرْجعون ۞ فتعالى الله الملكُ الحقُّ** ﴾ (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

وقال تعالى : ﴿ **أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهُمْ كالذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سواءً محياهم ومماتهم ساءَ ما يحكمون** ﴾ (الجاثية : ٢١) .

يعنى أن الحكم بالتساوى بين المتناقضين هو حكم سيء مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية ، فكيف عند حكمة الخالق التى لا تتناهى ؟ .

فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار ، ولا يتساوى الأعمى والبصير ، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فلا يتساوى المسيئون مع المحسنين ، ولا الطالح مع الصالح ، بل لا بد من التمييز بينهما فى عالم آخر تظهر فيه النتائج ، وتبرز فيه الدقائق ، وتحق فيه الحقائق ، وهو يوم الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ؟ .

قال تعالى : ﴿ **الحاقةُ ۞ ما الحاقةُ ۞ وما أدراكَ ما الحاقةُ** ﴾ (الحاقة : ١ ـــ ٣)

❀ ❀

الفصل الثالث

كلمة العلم فى إثبات البعث

- النار من الشجر الأخضر .
- عود على بدء .
- عظمة الكون .
- الخلية وحدة الحياة .
- موت الخلايا

كلمة العلم فى إثبات البعث

فماذا يقول العلم فى هذا العالم البديع الصنع ؟ .

إننا نسوق نبذة يسيرة مما قاله العلم فى هذا الكون ، لا تزيد عن كونها شعاعاً متسللاً من حنايا النافذة .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (الكهف : ١٠٩)

النار من الشجر الأخضر

يقول المهندس عثمان حلمى فى كتابه « من آيات الله فى الكون » تحت عنوان « النار من الشجر الأخضر » :

« فى عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول فى إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها . لأننا فى الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التى تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة . فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة مسألة تكوين الخشب فى جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لا غنى لنا عنها فى حياتنا اليومية وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وتذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرأيتم النارَ التى تُورُون * أأنتم أنشأتم شجرتَها أمْ نحن المنشئون ﴾ (الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

وعندما نتدبر معنى هذه الآية نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة ، مثل الكيمياء ، والنبات ، والأحياء ، والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم

تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية وصلتها بحياة الإنسان وما خلق الله فى السماوات والأرض .

وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة مع آيات القرآن الحكيم .

فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسواها وقدَّرها ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة .

وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكوين الخشب :

دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتى منه ، وادخاره ليوقده عند الحاجة . وما الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طُمرت فى الأرض ، وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن استغرقت آلاف السنين ، وطرأ عليها فى غضونها تغييرات مختلفة ، فتكربنت ، أى تفحمت وأصبحت ذلك الفحم المعروف .

والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية .

فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه فى جسمه .

ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب وما نتج عنها من الفحم إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون ، الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى . ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى ، ويمثله فى جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية فى درجة الحرارة العادية ، دون عناء ملحوظ ولا أعراض ظاهرة ، فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكميائى درجة حرارة

مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض .

والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون . ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخضير أو الكلوروفيل . ولذا فإن الشجر الأخضر — والأخضر دون سواه — هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية . وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى أكسيد الكربون .

ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأكسجين ، ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر . على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد . ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ينتقل من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب ، فيخزن فيها ثم يتركز تدريجيا ، ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة ، مثل اللجنين والسوبرين ، فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ٠٠١, من المليمتر ، ككثير مثلها من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة . ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات ، فقامت بعملها المعجز .

وبعد .. فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل ، أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا ، لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال ، وهو الحيوية التى أودعها الخالق سبحانه

وتعالى فى مادة الخلية ، وهداها لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها . فهو الذى قَدَّر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى..

وأنىَّ للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقا محدودة ، ولم يؤته من العلم إلا قليلاً . فإذا طعن فى السن ، وبلغ من العمر أرذله ، نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ **ومنكم مَنْ يُتَوفَّى ومنكم منْ يُرَدُّ إلى أرذلِ العمرِ لِكى لا يعلمَ من بعدِ عِلْمٍ شيئاً** ﴾ (الحج : ٥) .

هذا الإنسان الذى يجأر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية ، وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالاً ودماراً ، يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم — قد نسى خلقه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثالاً فقال ﴿ **مَنْ يُحيى العِظامَ وهى رَميمٌ** ﴾ ؟ (يس : ٧٨)

فأنزل الله فى القرآن على نبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ يحييها الذى أنشأها أوَّل مَرَّةٍ وهو بكُلِّ خَلْقٍ عليم** ﴾ (يس : ٧٩) ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم ، لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى .

وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويعظه ، ويظهر له قلة حيلته ، إلى جانب قدرته تعالى التى لا تُحدُّ ، فقال : إن الذى أنشأها أول مرة ثم يحييها ، هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص لاحتوائه على مادة الكلوروفيل كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامداً فى موضعه ، قد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ، ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً ، كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول :

﴿ يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له إن الذين تَدْعون من دُون الله لنْ يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإن يَسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ﴾ (الحج : ٧٣)

فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خَلْق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة ، والذبابة الدنيئة ، إزاء خلق السماوات والأرض ، وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : **﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾** (غافر : ٥٧) .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا وفى أنحاء الكون ، ونبهنا إلى التمعن والتفكير فى كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم .

فاستمع لقوله تعالى :

﴿ أفَلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ * وإلى السماءِ كيف رُفِعَتْ * وإلى الجبالِ كيف نُصبتْ * وإلى الأرضِ كيف سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ١٧ — ٢٠) .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة وهى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولجيا : علم طبقات الأرض والجغرافيا . ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآية الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم : سبحان الخلاق العظيم ؛ دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات » .

* * *

عود على بدء

بعد ما استمعنا إلى كلمة العلم فى الشجر الأخضر ، نعود إلى كلامِ العلامة ابن كثير فى تفسير الآيات السابقة :

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السماوات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأراضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ **لخلق السماوات والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ** ﴾ (غافر : ٥٧) .

وقال عز وجل : ﴿ **أَوَ ليس الذى خلقَ السماواتِ والأَرْضَ بقادرٍ على أنْ يخلقَ مثلهم** ﴾ (يس : ٨١) أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير .

وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل : ﴿ **أَوَ لَم يَرَوْا أن الله الذى خلقَ السماواتِ والأرضَ ولم يَعْىَ بخلقهن بقادرٍ على أن يُحيىَ الموتى بلى إنه على كُلِّ شىءٍ قدير** ﴾ (الأحقاف : ٣٣)

وقوله تعالى : ﴿ **بلى وهو الخلاَّقُ العليمُ * إنما أمرهُ إذَا أرادَ شيْئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون** ﴾(يس : ٨١ ، ٨٢)أى : إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن . قوله : (فيكون) أى : يوجد دون ما تراخ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب عن شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذر رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول : يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئا فإنما أقول له كن فيكون » .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبحان الذى بيده ملكوتُ كُلِّ شىء وإليه تُرْجعون ﴾ (يس : ٨٣)

أى تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كلهُ ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَسُبحانَ الذى بيده مَلَكُوتُ كُلِّ شىء ﴾ كقوله عز وجل ﴿ قُلْ مَنْ بيده ملكوتُ كُلِّ شىء ﴾ (المؤمنون : ٨٨) وكقوله تعالى : ﴿ تباركَ الذى بيده الملكُ ﴾ (الملك : ١) فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت .

ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا حماد عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة عن حذيفة وهو ابن اليمان رضى الله عنه قال : « قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات ، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ثم قال : الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة . وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه . فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاى » .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى حمزة مولى الأنصار ، عن رجل من بنى عبس عن حذيفة رضى الله عنه : أنه رأى رسول الله ﷺ يصلى من الليل وكان يقول : الله أكبر ثلاثاً ، ذى الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع ، فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه وكان يقول فى قيامه « لربى الحمد » ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول فى سجوده « سبحان ربى الأعلى » ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من

سجوده ، وكان يقول : « رب اغفر لى ، رب اغفر لى » فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام » .

وبعد ، فقد طفنا بهذه الروضة القرآنية الفيحاء من خواتيم سورة يس ، وخشعنا بعد ما استمعنا إلى آيات القدرة التى نصبها الله تعالى فى الآفاق والأنفس .

سُبْحانك اللهمَّ أنت الواحد كُلُّ الوجودِ على وجـودك شاهدُ
يا حىُّ يا قيومُ أنت المرتجى وإلى عُلاك عَلاَ الجبينُ الساجدُ
يا مَنْ له عَنتِ الوجوهُ بأسرها رَهَباً ، وكلُّ الكائناتِ تُوحِّدُ
أنت الإلهُ الواحدُ الحقُّ الذى كُلُّ القلوبِ له تُقِرُّ وتشهَدُ

لا يسعنا بعد هذا إلا أن نردد مع الكون كله ، من سمائه إلى أرضه ، ومن عرشه إلى فرشه ، قوله جل جلاله :

﴿ فَسُبحانَ الله حين تُمسُونَ وحين تُصبْحون * وله الحمدُ فى السماواتِ والأرضِ وعَشِياً وحين تُظهِرون * يخرِجُ الحىَّ من الميتِ ويخرِجُ الميتَ من الحىِّ ويحيى الأرضَ بعد مَوْتها وكذلك تُخرجُون * ومن آياته أن خلقكم من تُرابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون * ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لِتسكنوا إليها وجعلَ بينكم مَودَّة ورحمةً إن فى ذلك لآياتٍ لِقومٍ يتفكرون * ومن آياته خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآياتٍ للعَالَمين * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بالليْلِ والنَّهارِ وَابتِغاؤُكُم منْ فَضْلِهِ إنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرقَ خوفاً وطمعاً وَيُنَزِّلُ من السماء ماءً فيحيى به الأرضَ بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقومٍ يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماءُ والأرضُ بأمره ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله مَنْ فى السماواتِ والأرضِ كُلٌّ له قانتون * وهو الذى يبدأ الخلْقَ ثم يُعِيدُهُ وهو أهْونُ عليه وله المثلُ الأعلى فى السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ ﴾
(الروم : ١٧ — ٢٧) .

عظمة الكون

جاء فى كتاب « العلم فى خدمة الدين » للباحث محمد عاطف البرقوقى ما نصه : « إذا كان الإنسان قد بهرته الأرض واتساعها ، ولم يكشف عن جميع نواحيها إلا بعد آلاف السنين ولم يصل إلى القمر إلا فى القرن العشرين (القمر الصناعى) وكان لوصوله دوى عظيم ملأ الأسماع من إذاعات العالم ، وأشبع الأبصار من صوره ... ومع ذلك فإن القمر الصناعى الأول لم يزن أكثر من ١٨٤ رطلاً ، ثم زاد القمر الثانى إلى ٥٠٨ رطلاً ، وبلغ فى سنة ١٩٦٠ عدة أطنان ، فأين هذا من وزن القمر الطبيعى ؟ بل ما كان يصح إطلاقا تسمية هذه القنبلة الصغيرة قمراً على الإطلاق ، وأين هذا من وزن الأرض ، وأين وزن الأرض بالنسبة للشمس التى يبلغ وزنها ٣٢٣٠٠٠ر٣ مرة من وزن الأرض ؟؟!! ومع ذلك فهنالك فى الكون بلايين النجوم ، وشمسنا ما هى إلا نجم من النجوم ، وإنما تبدو لنا شمسنا كبيرة لقربها من الأرض ، وأقول : قربها رغم أن الإنسان بعلمه وغروره لم يصل إلى جزء من مليون من المسافة بيننا وبين الشمس .

والعلم بعد كشفه للمنظار ، وكان أول منظار كشفه العالم الإيطالى (غاليليو) (١٥٦٤ إلى ١٦٤٢ م) وتطورت المناظير بعد ذلك فقويت وقربت — وإن كان الإنسان يستطيع بالنظر إلى السماء ليلا بالعين المجردة أن يشاهد ٦٠٠٠ نجم ، فإنه بعد كشف المناظير استطاع أن يشاهد ٨٠ مليون نجم ، ثم بطرق علمية أخرى ، وبخاصة بالتصوير العلمى استطاع أن يدرك وجود ١٥٠ مليون نجم وما خفى كان أعظم !! والواقع أنه يوجد أضعاف هذا العدد من النجوم فى الكون ...

والنجوم والكواكب موزعة فى الفضاء مجاميع ، مثل الطيور تطير فى الفضاء أسرابا ، والأرض والقمر والمشترى والزهرة والشمس وغيرها تكون مجموعة هى المجموعة الشمسية . ويوجد عدد عظيم من المجموعات المتشابهة فى الكون .

فالأرض ليست إلا واحدة من المجموعة الشمسية . والمجموعة الشمسية ليست إلا واحدة من وحدات المجموعة المجرِّية . فالأرض على عظمتها واتساعها والتى بهرت الإنسان ـــ ما هى إلا جزء صغير من الكون العظيم .

ولكى أبين لحضراتكم اتساع الكون أقول : إن البعد بين الأرض والشمس يبلغ (٩٢٫٨٧٠٫٠٠٠) ميل ، وهى مسافة كبيرة كما ترون ، ولكن هذا البعد الكبير ليس إلا جزءاً صغيرا من أبعاد تفوقه كثيرا بين الأرض والنجوم البعيدة ...

ولكى أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ألجأ إلى طريقة أخرى هى طريقة سرعة الضوء .

كثيراً ما نلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلاً : إن المسافة بين القاهرة والإسكندرية تبلغ ثلاث ساعات بالقطار السريع ، وأن المسافة بين المنزل والمحطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلاً .

والسرعة التى سنتخذها وحدة فى تقدير أبعاد الفضاء ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطائرة النفاثة والصواريخ ، بل هى سرعة الضوء ، وهى أكبر سرعة معروفة فى العالم .

وسرعة الضوء هى أيضا سرعة اللاسلكى ، ولكى أوضح لحضراتكم عظم هذه السرعة أوجه النظر بمقارنتها بسرعة قطار سريع يقطع فى الساعة ٦٠ ميلاً أى بسرعة ميل واحد فى الدقيقة أو جزء من ستين جزءاً من الميل فى الثانية .

أما الضوء فلا يقطع كسراً من الميل فى الثانية بل يقطع ١٨٦٫٠٠٠ ميل فى الثانية ، أى ما يعادل ٣٠٠٫٠٠٠ كيلو متراً فى الثانية وهى سرعة عظيمة بلا شك .

وهناك حقيقة أخرى تبين عظمة هذه السرعة وهى أن المسافة بين الشمس والأرض وهى نحو ٩٢ مليون ميل كما ذكرنا وأشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة الضوء العظيمة فتقطع المسافة بينهما فى ٨ دقائق ، ١/٩ ثانية .

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه المسافة بطائرة نفاثة سرعتها ٦٠٠ ميل فى ســعة لاستغرق قطعها لا ٨ دقائق ولا ٨ ساعات ولا ٨ سنوات بل لاستغرق

ذلك نحو ١٧ سنة و ٦ أشهر وذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه بدون توقف ليل نهار وأين هي الطائرة التي تسير سنوات دون توقف حتى للتزود بالوقود ؟ .

فما أعظم سرعة الضوء .. وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية التي تدل على قدرة الله تعالى عز وجل .

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، فإن كانت أشعة الضوء تصل إلى الأرض من الشمس في نحو ٨ دقائق فقد أثبت العلم أن هناك نجوماً تبعد عنا بملايين السنين .

وقد اتخذ العلماء السنة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية تلك المسافات الكبيرة بين النجوم .

ولتتصوروا عظمة هذا الكون أقول : إن رحلة حول الأرض يقوم بها الإنسان تستغرق أياماً أو ساعات أو أشهراً ... ولكن اللاسلكي يقطعها في أقل من ١/٧ ثانية — وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوؤه في (١٥٫٠٠٠) سنة . ويعتقد العلماء أن هناك نجوماً يصل إلينا ضوؤها في ألف مليون سنة ضوئية .

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما في الوجود يسبح في الفضاء كأسراب الحمام أو الطير التي تطير بسرعة في الهواء ، ولكن النجوم تطير في الفضاء بسرعة كونية هائلة ، وفيها ما يدور من أقمار حول الأرض ومن أقمار وكواكب حول الشمس وهناك ملايين من المجاميع أو المجرات وفيها ما فيها وكلها تسبح في الفضاء في نظام وتنسيق من صنع الله وإبداع الخالق العظيم ..

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠)

والمتأمل في هذا الكون العظيم ، تأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعاً وتبجيلاً وتقديرا لعظمته وجلاله .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨)

وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون . اهـ

قال الله تعالى :

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد : ٤)

آية كبرى من آيات الله فى المملكة النباتية .

إنه الجلال والجمال والكمال .

إن عالم النبات يمثل نوعاً كبيراً من أنواع الإعجاز الإلهى فى هذا العالم . فالذى أحيا الأرض الموات وأنبت فيها من كل شيء موزون ، ومن كل زوج بهيج ، قادر أن يبعث الأجساد بعد فنائها ، وتفرق أجزائها . وما الإنسان إلا عضو فى المملكة الحيوانية ، وبينها وبين المملكة النباتية عظيم شبه .

ولبيان هذه الحقائق نستمع إلى صوت العلم فى بيان رائع وحقائق ناطقة تلهج بالثناء والعرفان على الخالق البديع الذى أحسن كل شيء خلقه .

وقد جاء فى كتاب « دلائل الحق فى عظمة الخالق » للدكتور عزت محمد خيرى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام : ٩٥)

بعد ما ذكر المؤلف هذه الآية الكريمة قال : « تتنوع صور الحياة وتتشكل ألوانها ، وتتعدد أصنافها ، وتتكشف خواصها ، ويدأب العلماء على تقصى أسرارها ، والتعرف على أحوالها ، ومتابعة أطوارها ، ولكن بقى للحياة سرها الأعظم ، وهو سر الوجود .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر : ٢٨) .

وإن كل ما نعلمه عن الحياة فى مختلف صورها ؛ يتضمن الكثير من التفاعلات الكيميائية ، منها البسيط ومنها المعقد ، منها المعلوم ومنها ما زال غير

معلوم — وإن كان ملموسا محسوسا — ولعل من أبرز ما يميز الكائنات الحية على الجماد أنها — نباتا كانت أو حيوانا أو إنسانا — قد اختصت بالقدرة على النمو والتكاثر ، وإن نتاج كل نوع منها له من دلائل التماثل ما يجعل من اليسير نسبته إلى نفس السلالة من الكائنات الحية وتتعدد السلالات وتختلف صفاتها وقد تتشابه فيما بينها في قليل أو كثير وإن عمليات النمو والتكاثر تتضمن تفاعلات كيمائية ، وأهمها تلك التى تحدث أثناء تكون الأجنة واكتمال نموها .

وإن نمو كائن جديد يمكن أن يحدث خلال جزء صغير من طور الحياة فى الحيوان ، أو قد يستمر نموه طوال الحياة .

واستشهد المؤلف بقوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١)

وللنبات والحيوان بصفة عامة القدرة على استيعاب بعض المواد كالغذاء والماء وإدخالها فى تفاعلات كيمائية يصاحبها عادة انطلاق للطاقة وامتصاص لبعض النواتج ، وتخلص من البعض الآخر ، وتسمى عملية استفادة الكائن بالغذاء الذى يأخذه بعملية الأيض أو التمثيل الغذائى .

ومن خصائص الكائنات أنها تستجيب للأجواء المحيطة بها وتتكيف بها وتتعامل مع بعضها أو كلها ، فقد ينمو النبات فى اتجاه يأتى منه شعاع من ضوء أو طاقة ، كما أن من الحيوان ما تقوده حاسة الشم فيسير وفقا لمدى قوة تأثير رائحة غذاء يفضله ويميزه على حواسه ،وما توجهه إليه غرائزه تبعا لذلك .

ولعل المشكلة العظمى التى ما زالت تواجه العلم والعلماء ، وتستحث البحث والفحص والدرس ، هى تعريف (الكائن الحى) تعريفا دقيقا — وما بالنا بالنسبة لتركيب أنسجته وخلاياه وتوصيف العمليات البيولوجية والكيميائية والحسية والعصبية فيه ؛ ولعل هذه الحقيقة يمكن فهمها وإدراك ما بعدها إذا علمنا أن الجدل العلمى ظل فترة طويلة يناقش ويمعن في الشد والجذب حول أبسط أنواع

المادة — فيروسات النبات — التى يظن أن فيها حياة ، فقد تبين أن لهذه الفيروسات القدرة على إحداث صورة بسيطة للتكاثر ألا وهى الانقسام إلى كائنات متماثلة مع الفيروس الأصلى تماثلا تاما .

فمثلا فى حالة فيروس ورق الطماطم وجد أن الفيروس الواحد يستطيع أن يحول بعض خلايا ورقة الطماطم إلى عدة كائنات هى أساسا وحدات متكاثرة منه ، إلا أنه قد ثبت أن هذه هى صورة الحياة الوحيدة التى توجد فى الفيروسات النباتية بصفة عامة وتظهر كأنما هى إحدى نماذج تحول كائن غير حى إلى كائن حى ، ولكن هذه الكائنات لا تتمتع بأى صفة أخرى من صفات الحياة ، فهى لا تنمو ، ولا تستوعب غذاء ولا تمثل الغذاء ، كما أنها لا تستجيب للمؤثرات الخارجية بالطريقة التى تحدث فى الكائنات الكبيرة النامية .

ويبقى بعد ذلك سؤال هام ما زال يحير العلماء . هل تعتبر هذه الفيروسات كائنات حية ؟ إذا كان الكائن الحى هو ذلك الذى يقدر على القيام بعمليات التمثيل الغذائى (الأيض) والتكاثر والنمو فإن الفيروسات ما هى إلا جزيئات كيميائية بروتينية معقدة التركيب يبلغ وزنها الجزئى ما يقرب من بضع وعشرة ملايين وحدة ، وأن لها من التركيب الجزئى ما يسمح لها بحفر بعض العمليات الكيميائية فى الأوساط المناسبة تستطيع بموجبها تكوين جزيئات مماثلة لها تماما . وهذا هو — حتى الآن التفسير المتعارف عليه بين جمهور العلماء والباحثين . وبالتالى فلا يمكن أن نسمى ما يتوصل إليه بعض العلماء مهما جل شأن ما يتوصلون إليه من أمثال هذه التحولات التى تظهر إحدى صور غير مكتملة للحياة على أنه خلق لحياة أو استحداث لها .

هذه بعض فيروسات النبات .. أما فيروسات الحيوان وهى التى تنمو على أنسجة الحيوان ، فقد تبين أن لها تركيبا محددا وهى أكبر كثيرا من فيروسات النبات ، إذ يبلغ وزنها الجزئى بضعا وألف مليون وحدة ، كما إنها تمثل الحياة تمثيلا متكاملا ، من أهم خصائصه النمو والتكاثر . وقد وجد أن الكثير من الكائنات الدقيقة كالخمائر والبكتريا آحادية الخلية لها هذه الخواص . وقد تكون الخلية

محدودة الحجم بحيث لا ترى إلا بالميكروسكوب (المجهر) . وهذه يبلغ قطر كل منها حوالى جزء من عشرة آلاف جزء من السنتيمتر ، أو قد تكون من الكبر بحيث يبلغ قطرها حوالى الملليمتر أو أكثر .

وتتكون الخلية من تركيب دقيق التنظيم ، يتألف من جدار الخلية وهو رقيق جدا ، يبلغ سمكه مئات من وحدات الإنجستروم (الإنجستروم = جزء من مائة مليون من السنتيمتر) وفى داخل هذا الجدار يوجد قوام شبه سائل يتضمن السيتوبلازم وغيره من المركبات . وتتكون بعض الكائنات الأخرى من تجمعات كبيرة من الخلايا قد تتعدد أنواعها فى الكائن الواحد ، فمثلا تتكون العضلات ، وجدران الأوعية الدموية والأنسجة الضامة والأعصاب والجلد وغيرها من أجزاء جسم الإنسان من خلايا مترابطة مع بعضها البعض بنظام رتيب وتركيب محدد .

وبالإضافة لهذه الخلايا توجد خلايا أخرى تسبح فى سوائل الجسم وتنتقل من جزء إلى آخر .

ومن أهم هذه الخلايا كرات الدم الحمراء ، وهى على هيئة أقراص مسطحة يبلغ قطر كل منها حوالى ٧٠ ألف وحدة إنجستروم وسمكه حوالى ١٠ آلاف وحدة . وعدد الكرات الحمراء كبير جدا يبلغ فى الشخص البالغ ما يقرب من خمسة ملايين فى الملليمتر المكعب من الدم . فإذا ما علمنا أن جسم الإنسان يحتوى على ما يقرب من ٥ لترات من الدم ، فإن عدد الكرات الحمراء يبلغ ٢٠٠٠٠ مليار فى الدم . ويحتوى جسم الإنسان كذلك على عديد من الخلايا الأخرى بعضها يصل قطره إلى حوالى ١٠ آلاف وحدة انجستروم كخلايا الأعصاب ، وهذه تمتد ما يقرب من ١٠٠ سنتيمتر من الأطراف إلى قمة العمود الفقرى . ويبلغ عدد الخلايا فى الجسم حوالى ١٠ بليون خلية .

هذا ولا يتكون الجسم البشرى من الخلايا فقط ، ولكنه يحتوى كذلك على العظام ، وهذه تعتبر مخلفات للخلايا الصانعة للعظام .

وتتكون العظام من مركبات غير عضوية ــ وهى فوسفات الكالسيوم الهيدروكسيدية وكربونات الكالسيوم ــ ومركب عضوى يسمى الكولاجين ، وهو مادة بروتينية .

وبالإضافة لذلك يحتوى الجسم على السوائل وهى الدم والنخاع وسوائل أخرى تفرزها بعض الأعضاء مثل اللعاب والعصارات الهضمية . وتشتمل هذه السوائل على العديد من المواد الكيميائية ويتحدد تركيب الخلايا بتركيب خلايا الجدران بصفة خاصة . ففى النبات تتكون الخلايا أساسا من السليلوز السكرى ، وفى الحيوان (والإنسان) يمثل البروتين الإطار الأساسي لتكوين الخلايا وجدرانها على حد سواء . فمثلا تحتوى كل من الخلايا الحمراء فى الدم على ٦٠٪ من الماء ، ٥٪ من مواد متنوعة ، مضافا إلى ذلك ٣٥ ٪ من الهيموجلوبين ــ وهو مركب بروتينى يحتوى على الحديد وزنه الجزئى ٦٨ ألف وحدة ــ ويتميز بخاصية التفاعل الانعكاسى مع الأكسجين ، وبالتالى تنظيم امتصاص الأكسجين وتفاعلاته فى الجسم . وبهذه الخاصية يمكن للدم أن يتحد مع مقادير كبيرة من الأكسجين فى الرئتين وينقل بالتالى الأكسجين إلى الأنسجة فيؤكسد المواد الغذائية ومكونات الجسم الأخرى محدثا الطاقة اللازمة لدفع الحياة وحفظها فى الجسد » . أهـ

هذا بعض من كل عن عظمة الخلق ، وقدرة الخالق الذى وهب الحياة للكائنات وحفظها عليهم ، وخلق من أنواعها وأصنافها وأشكالها بأمر كن فيكون .

وإن خلقه للبشر أرق أنواع المخلوقات دليل على إعجاز وقدرة ، ويتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ (الأنعام : ٣٨)

الخلية وحدة الحياة

وبعد هذا البيان يحدثنا المؤلف عن الخلية فيقول :

« سبحان الله الخالق المصور القادر المانع الرزاق الوهاب . يتجلى فى خلقه ويفيض فى نعمائه ، ويربط بين مخلوقاته ، ويوثق الصلة بين موجوداته . وإذا تأملنا فى خلق الكائنات الحية ــ نباتا أو حيوانا أو إنسانا ــ لمسنا وحدة الخلق ،

ووجدناها جميعا ترتبط ببعضها البعض ، وبالكون الذى تعيش فيه ، من حيث خصائص التكوين ومقومات الحياة .

فالشمس والنجوم تنشر الضوء وتشع الطاقة . والسماء تنزل الماء ، فيأخذ النبات من الماء والضوء والطاقة ما يونعه ، ويستخدم منها فى عمليات التمثيل الغذائى والأيض النباتى أو الإتلافى ما يثريه بالمواد الغذائية ويخلصه من المواد الضارة ، والحيوان يأخذ من النبات غذاء ، والإنسان يأخذ من النبات والحيوان غذاء وكساء ومنافع أخرى عدة . يقول تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٨ ، ١٩)

وإذا تأملنا مرة أخرى فى الكائنات الحية وجدنا أنها جميعا يتكون كل منها من وحدة ــ أو وحدات ــ بنائية تسمى الخلية . ورغماً عن أنه قد تم التعرف حتى الآن على ما يقرب من ٤٠٠ ألف فصيلة نبات ، وضعف هذا العدد من فصائل الحيوان ، فإن خلايا جميع هذه الأنواع المتعددة لها الكثير من الصفات المتشابهة .

ويمكن التعبير عن تركيب مختلف أنواع الخلايا بما يسمى بالتركيب النموذجى ، إذ تتكون كل خلية من غشاء وسيتوبلازم ونواة . وكان يطلق اسم البروتوبلازم على كل المادة الحية فى الخلية . إلا أنه بعد التعرف على العديد من المكونات أصبح لهذا الاسم أهمية تاريخية فقط . ويحتوى السيتوبلازم على دقائق عضوية مختلفة من بينها ما يسمى « الميتوكوندريا » و « الليزوزومات » و « الميكروزومات والسنتروزومات » كما يحتوى السيتوبلازم على قنوات دقيقة جدا تسمى قنوات الأندوبلازم ، وكذلك جسيمات جولجى .

والميتوكوندريا هى الدقائق العضوية التى تحدث عندها تفاعلات التأكسد فى الخلية ، أما الليزوزومات فهى مواقع عمليات التميؤ « التحلل المائى » بينما تكون البروتينات فى الميكروزومات ، وتساعد السنتروزومات عملية انقسام الخلية . وقد تبين من نتائج البحوث والدراسات المعملية أن القنوات الموجودة فى الخلية هى

بمثابة أغشية داخلية تربط بين غشاء الخلية وغشاء نواة الخلية بينما تعمل جسيمات جولجى على تركيب غشاء الخلية . ويملأ الخلية فيما عدا الكائنات العضوية المشار إليها مواد غير حية مثل البروتينات والسكريات والليبيدات والأصباغ الملونة . أما نواة الخلية فهى بيضاوية الشكل وتشغل حيزا صغيرا متكثفا وهى مسئولة عن توريث خصائص الخلية الأم إلى الخلية المتوالدة عنها .

وتحتوى النواة على نوية صغيرة وحبيبات صغيرة ، يطلق عليها اسم كروماتينات . ويعتقد أن النوية تسهم فى عملية التحكم فى تكون البروتينات .

التكوين الكيمائى لخلية نموذجية :

يتكون غشاء الخلية أساسا من مواد متراكبة من البروتينات والليبيدات ، تسمى « الليبوبروتين » أما السيتوبلازم فهو وسط شفاف يتراوح فى قوامه بين سائل رقيق إلى هلام جامد . ويحتوى جسيمات ميكرئية ، والميتوكوندريا غنية بالبروتين وبالليبيدات الفسفورية ، بينما تحتوى جسيمات جولجى على ليبيدات أصلا . ويتألف السكر الموجود فى الخلية من سكر الجليكوجين فى أغلب الخلايا . ويتكون البروتين الذى تحتويه الخلايا من فصيلة البروتينات النووية المعروفة « بالريبوز » ويتكون البروتوبلازم بصفة عامة من ٧٥ ٪ من وزنه أو أكثر ماء كما يحتوى على الكلوريد والفوسفات والكبريتات ، وأيونات عناصر البوتاسيوم والصوديوم والمغنسيوم والكالسيوم ، وكذلك مركبات الكبريت وآثار بسيطة من النحاس والحديد والمنجنيز واليود وبالإضافة إلى ذلك توجد فيه البروتينات والسكريات والليبيدات ويؤدى وجود مقادير كبيرة نسبيا من البروتين فى الخلية إلى اتخاذها صفات غروانية .

هذا كله يأتلف ويتجمع وينتظم فى الخلية وحدة كل كائن حى ، وما الخلية إلا جسيم صغير لا يرى إلا بالميكروسكوب . حقا إنها من صنع الله القادر الخلاق . وما بالنا بطريقة تجمع هذه الخلايا وترابطها وانتظامها وتكاملها لتكوين الكائن الحى بمختلف فصائله وأصنافه وأنواعه . صدق الله العظيم فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج : ٥ ، ٦)

ومما سبق يتبين لنا أن كثيرا من المركبات التى تدخل فى تكوين الخلية هى مواد كيميائية عادية يمكن تحضيرها بيسر فى المعمل وحفظها على رفوفه ، ولكن العجب أنها عندما تنتظم بأمر خالقها وتمتص ما يكفيها من الطاقة تدب فيها الحياة .

إنها من لدن الخالق الواحد الأحد القيوم العزيز القدير .

وتتميز جميع الخلايا الحية بخصائص مشتركة ــ أيا كان مصدر هذه الخلايا ــ تميزها عن المادة غير الحية . من أهم هذه الخصائص أنها تقوم بنوع عمليات الأيض ، أى أنها تأخذ المواد الخام وتجرى عليها من التغيرات ما يلزم لتكوين مركبات الخلية . وكذلك ما تحتاجه من الطاقة ، ثم تتخلص عن طريق عملية « إخراج » مناسبة من النفايات التى لا تحتاجها ، وهى عمليات كيميائية وحيوية معقدة وتصاحب عمليات الأيض عمليات تنفس مناسبة وتتميز الخلايا الحية كذلك بخاصتين أساسيتين هما « النمو » و « التكاثر » وعن طريقهما يتم حفظ النوع ، كما تعتبران صنوان للحياة فى الخلية .

ومن الصفات الهامة للخلية الحية أنها تتجاوب مع الظروف البيئية المحيطة بها إما بالتنافر والرفض ، أو بالملاءمة ، وهذا أيضا من مظاهر الحياة فى الخلايا وحتى النباتات التى تنمو تحت ظروف ثابتة خلافا للحيوان الذى ينتقل من مكان إلى آخر ــ فإنها تلائم نفسها من البيئة بما يحفظ عليها الحياة . فنجد أن بعضها يمد أغصانه لتصل الماء ليعوض ما ينقصه عن طريق الجذور ، ومنها ما تتحرك لمواجهة مشرق الشمس لتمتص ما تحتاج من طاقة ، وعلى ذلك فيمكن القول إن الخلايا

تمارس الحركة . وفى حالات قليلة قد تحتفظ بعض الخلايا بصفة مؤقتة ببعض الصفات الحية وليس بكلها ، فمثلا يمكن تجميد بعض الفيروسات وبلورتها ، وبالتالى فإنها تبدو كما لو كانت غير حية ، ولكنها إذا ما غمرت فى وسط مناسب فإنها تنشط فتنمو وتتكاثر لتوها ، وتنشأ الفروق الخاصة بين خلية وأخرى من نوع آخر ، من اختلاف المركبات المكونة لها من حيث المقادير النسبية التى توجد عليها ، وسرعة تفاعلها مع بعضها ، والترتيب الهندسي لها ومواضعها فى الخلية ، فمثلا تحتوى الكرات الحمراء فى الإنسان على الهيموجلوبين الذى يشتمل على الحديد ... والهيموجلوبين هو الذى يساعد على نقل الاكسجين إلى الخلايا الأخرى فى الجسم . وتحتوى الخلايا السطحية للجلد على بروتينات غير قابلة للذوبان . ومن ثم فإنها تصلح كغشاء يضم الجسد ويزوده بالحماية ضد الضربات أو الصدمات وكذلك من أضرار التعرض للمواد الكيميائية . وتتشكل خلايا الأعصاب بما يلائمها لنقل النبضات والإشارات الكهرومغنطيسية . بينما تحتوى خلايا العضلات على مركبات تستطيع أن تتفاعل بحيث تحدث انكماشا فى الخيوط النسيجية .

موت الخلايا

إذا ماتت مادة حية ، فمعنى ذلك أنها توقفت عن القيام بأنشطتها التى تميز الحياة فيها ، ويدل ذلك على أن خلاياها فقدت صفاتها الذاتية من حيث التكوين والوظيفة ، إما لتغير جذرى فى أعدادها أو صفاتها أو فى مكوناتها البروتوبلازمية . وقد يكون هذا التحول نتيجة لدورة الحياة فى الخلية أو لتغير فى الظروف المحيطة بها أو لكلا العاملين ، أو قد يكون بسبب عوامل أخرى مما يختلف حسب الأحوال . فمثلا يحدث للإنسان أثناء حياته العادية أن تموت بعض خلاياه متحولة إلى مواد نافعة غير حية . فتتحول بعض الخلايا السطحية فى الجلد إلى أجزاء ميتة من الجلد أو الأظافر .

هذا وقد لوحظ حدوث تغيرات فى خلايا معينة فى جسم الإنسان نتيجة

لتقدم السن . فمثلا لوحظ فى بعض الطاعنين فى السن أن خلايا الأعصاب ـــ وهى أطول خلايا الجسم عمرا ـــ تحتوى على أعداد متزايدة من حبيبات الليبيدات نتيجة لتغيرات كيميائية مما يجعلها تفقد جزءا من انتظام توزيعها مما يؤدى إلى تغيرات عصبية مختلفة فى مثل هذه الأحوال . ويحدث لبعض خلايا أنسجة المفاصل أن يقل محتواها من بروتين الألبومين (زلال البيض) ويصاحب ذلك ترسب الكالسيوم مما يجعلها تفقد مرونتها كما يحدث لبعض خلايا العظام أن تموت فتترك العظام هشة . أما خلايا الغدد فتختلف درجات تغيرها مع السن .

ومن أظهر التغيرات أن غدد الادرينال ترسب الكولاجين نتيجة لتلاشى بعض خلاياها . ويقل العد الليمفوسيتى للدم بمرور السن ، كما تؤدى الزيادة فى رواسب الكولسترول داخل جدران الأوعية الدموية التى تصلها مما يؤدى إلى زيادة ضغط الدم وبالتالى إلى زيادة التعرض للجلطة الدموية ، ويحدث ذلك نتيجة لاضمحلال بعض الخلايا فى هذه الأوعية .

وبعد فهذا بيان عن عظمة خالق الوجود تتجلى فى وحدة الحياة الحية والله هو واهبها ومشكلها ومنظمها فى شتى المخلوقات سبحانه القادر العزيز المتعال .

﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** ﴾ (الملك : ٢٣)

* * *

وبعد ، فمعذرة للقارىء إن كنا قد أطلنا فى إثبات هذه الحقائق العلمية لكنها توصلنا إلى حقيقة لا مراء فيها ، وإلى نتيجة لا يعتريها شك ولا يشوبها ريب . إن هذه الحقيقة تؤكد أن الإنسان والنبات كل منهما يمثل حقيقة لا تختلف ، ويشترك كل منهما فى صفات لا تفترق فإذا كان النبات يحصد ثم يبذر فينبت مرة أخرى ، فأى مانع يمنع من إعادة الإنسان بعد فنائه ، وأى عقبة تحول دون ذلك ، إذا كنا قد علمنا أن المبدىء والمعيد هو الله الذى أثبت هذه الحقيقة فى قوله ﴿ **وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** ﴾ (نوح :١٧ ، ١٨)

نعم لقد أطلنا فى ذكر الحقائق العلمية التى أثبتت لنا بما لا يدع مجالا للشك وجوه الشبه القوية بين النبات والإنسان مما يؤكد لنا عظمة القرآن فى تعبيره عن خلق الإنسان بالإنبات . فلم يقل تعالى والله أنشأكم من الأرض إنشاءً ، إنما قال ﴿ **والله أنبَتَكُمْ مِنَ الأرْضِ نَبَاتًا** ﴾ ليضع أيدينا على حقيقة كبرى تنادينا بأعلى صوتها وتقول : لم تنكرون البعث بعد الموت ؟ وما وجه إنكار ذلك وأمامكم البعث يتحقق كل يوم وكل ساعة .

ألستم يا بنى آدم كنبات هذه الأرض ، ألست يا ابن آدم تضع الحبة فى ظلمات الأرض فتنمو ، كما تضع النطفة فى ظلمات الرحم فتنتقل من طور إلى طور من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى جنين إلى طفل يأخذ طريقه فى الحياة ؟

﴿ **مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لله وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَاراً** ﴾ (نوح : ١٣ ، ١٤)

ألست يا ابن آدم تحصد النبات إذا أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه تحتصده بمناجلك ؟

أليس ملك الموت يحصدك عندما يبلغ الكتاب أجله ؟

﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إذَا جَاءَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إلَى الله مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ألاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾ (الأنعام : ٦١ ، ٦٢)

ألست يا ابن آدم تذهب بالنبات بعد استحصاده محمولا على ظهور الإبل والدواب إلى الأجران ؟

ألست يُذهب بك بعد موتك محمولا على خشبة حدباء إلى أجران المقابر ؟

ألست يا ابن آدم تأتى بالنورج لتدوس على النبات فتدوسه ؟ .

ألست يأتيك الدود فيدرسك فى أجران المقابر ؟

ثم تعال بعد ذلك . ألست تأخذ الحب الحصيد فتبذره فى الأرض فيخرج نباتا مرة أخرى ؟

أليست هذه حقيقة ملموسة لا ينكرها من كان له أدنى تفكير ؟

ألم ينبت النبات بعد أن درسته النوارج ؟

فلماذا تستبعد بعثك بعد موتك ، وأنت تسير مع النبات طورا بعد طور ، وحالة بعد حالة ، ومرحلة عقيب مرحلة ؟

إنه لا ينكر هذه الحقيقة إلا من سلب عقله فأصبح لا يميز بين الليل والنهار ، ولا يجادل فى هذه القضية إلا من وضع قلبه فى أكنة وفى آذانه وقر وعلى بصره غشاوة .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (الكهف ١٠٠ ، ١٠١)

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (فصلت : ٥) سبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق :

﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨)

يامن قلت وقولك الصدق ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذِلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تخرجُونَ *

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ (الروم : ١٧ — ٢٧)

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع

بين يدى يوم القيامة

- النفخ فى الصور .
- حديث عن الصور .
- عجب الذنب .
- ما هو الحشر ؟
- أول ما تنشق عنه الأرض .
- أرض المحشر .

النفخ في الصور

ماذا بعد الكلام عن البعث والأدلة الناطقة بوقوعه ؟ .

يتحدث العلماء المحققون عن كيفيته ، فيقولون : إن عدد النفخات فى الصور مختلف فيها .

ذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاث : نفخة فزع وهى السابقة على غيرها ، ونفخة صعق أى إماتة ، ونفخة إحياء .

فعند نفخة الفزع يفزع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم ينفخ نفخة الصعق أى الإماتة فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم بعد ذلك بمدة طويلة ينفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام إلى ربهم ينظرون .

وذهب قسم من العلماء إلى أن هناك نفختين : نفخة إماتة ، ونفخة إحياء .

أما الذين استثناهم الله تعالى من الفزع والصعق حين يُنفخ فى الصور ، فقد اختلف فيهم ، فقيل : هم جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وملك الموت ــ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

وقيل : هم الأنبياء ، وإلى ذلك جنح البيهقى كما فى الفتح .

وقيل : هم الشهداء ، أى ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقيل : هم الحور العين ، وخزنة الجنة ، وخزنة النار . وعلى كل من الأقوال فالواجب اعتقاد أن هناك من استثناهم الله تعالى .

أما المدة فيما بين النفختين : الإماتة والإحياء ، وكيفية إحياء الموتى ، فقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ « ما بين النفختين أربعون » .

قالوا لأبي هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيت » أى : لا أجزم بذلك . قالوا : أربعين شهراً ؟ قال : « أبيت » أى لا أجزم بأنها أربعون شهراً . قالوا : أربعين سنة ؟ قال : « أبيت » .

ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل . قال ﷺ « وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » .

ففى هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة بتعيين الأربعين ما هى . ولكن جاء فى رواية لأبى داود أنها أربعون سنة .

حديث عن الصور

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين : هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى ، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام وتختلف فى منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها .

وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن فى ضيق أعلاه وسعة أسفله . فهو ليس كروى الشكل كالأرض ونحوها ، بل قرنى الشكل .

قال الإمام الترمذى فى سننه : باب ما جاء فى شأن الصور ، ثم أسند إلى عبد الله بن عمرو قال : « جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال ما الصور يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « قرن ينفخ فيه » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ـــ القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ . فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ﷺ فقالوا : كيف نفعل أو كيف نقول ؟ فقال ﷺ : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وأما صاحب القرن ، أى الصور الذى ينفخ فيه ، فهو إسرافيل عليه السلام ، كما جاء مصرحاً به فى جملة الأحاديث .

قال فى الفتح : اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام . ونقل فيه الحليمى الإجماع .

ووقع التصريح به من حديث وهب بن منبه ، وفى حديث أبى سعيد عند البيهقى ، وفى حديث أبى هريرة عند ابن مردويه ، وكذا فى حديث الصور الطويل الذى أخرجه عبد بن حميد ، والطبرى وأبو يعلى فى الكبير ، والطبرانى فى المطولات ، وعلى بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية ، والبيهقى فى البعث من حديث أبى هريرة .

فبعد ما ينبت الله تعالى هذه الأجسام ، ويجعلها قابلة للروح ، يأمر الملك أن ينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فتتصل كل روح بجسمها ولا تخطئه . فما أشبه الإعادة بالبداءة .

قال تعالى : ﴿ **كما بدأنا أولَ خلْقٍ نُعيده وَعْداً علينا إنا كُنَّا فاعلين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) .

وقال تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارةً أخرى** ﴾ (طه : ٥٥) .

وقال تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً** ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨)

هذا هو البعث وكيفيته .

عجب الذنب

روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن فى الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً ، منه يركب الخلق يوم القيامة . قالوا : أى عظم هو يا رسول الله ؟ قال : عجب الذنب » .

وفى رواية مالك وأبى داود والنسائى ، « كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب » .

وعجب الذنب هو كما قال الإمام النووى بفتح العين وسكون الجيم : العظم اللطيف الذى هو أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له : عجم بالميم ، وهو أول ما يخلق من الأرض فى ابن آدم ، وهو الذى يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، كما أوضحه النووى رضى الله عنه .

وفى هذا الحديث الشريف بيان لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها ، وبعثها من قبورها ، وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماءً على ذلك الجزء الباقى من ابن آدم وهو عجب الذنب . ويجمع الله تعالى ما تفرق من تراب ذلك الجسم ، وتربو أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبس الروح فيها . ثم إن الله تعالى يأمر الملك فينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فهناك تتطاير كل روح إلى جسمها الذى كانت تعمره ، فإذا هم قيام ينظرون .

قال الله تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرضِ نباتاً * ثم يُعيدكم فيها ويخرجكم إخْرَاجاً** ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨) .

وقال الله تعالى : ﴿ **إنَّا نحن نحيى ونـميتُ وإلينا المصيرُ * يوم تَشقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً ذلك حَشْرٌ علينا يسيرٌ** ﴾ (ق : ٤٣ ، ٤٤) .

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدفين فى خبايا الأرض ، وبث الروح فيه .

ومن هنا ترى أن الله تعالى يشبه أمر البعث والإعادة بإنباته الزروع والأشجار ، وإحيائه الأرض بالمطر بعد موتها .

قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يدى رحمته حتى إذَا أقلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لبلد ميتٍ فأنزلنا به الماءَ فأخرجنا به من كُلِّ الثمراتِ كذلك نُخرجُ الموتى لعلكم تذكّرون** ﴾ (الأعراف : ٥٧) .

وقال تعالى : ﴿ **وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كُلِّ زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيى الموتى وأنه على**

كُلِّ شيء قديرٌ * وأن الساعةَ آتية لا ريبَ فيها وأن الله يبعثُ مَنْ فى القُبور ﴾
(الحج : ٥ ـ ٧)

فهو سبحانه كما ينشيء تلك الشجرة العظيمة ، والزروع الخصيبة بإنزال المطر على تلك النواة والحبة الدفينة فى بطن الأرض ، كذلك يخرج الله تعالى هذه الأجسام البشرية من تلك الذرارى والأجزاء الدفينة فى بطن الأرض بإنزال ماء عليها ، ثم بث الروح فيها بسبب نفخة الصور .

وهذا الماء الذى يحيى به الله تعالى الأجسام البشرية بعد موتها ، هو ماء الحياة المشتمل على جميع العناصر الوجودية الأربعة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : **﴿ أوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقناهُمَا وجعلنا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيّ أفلا يُؤمنون ﴾** . (الأنبياء : ٣٠)

فكانت السماوات والأرض رتقاً أى جملة مجملة فى الماء ففتقهما سبحانه أى فصل وجودهما أولاً إلى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه . فمن بخار الماء اللطيف خلق السماوات ، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام ، ثم فصلهما إلى سبع سماوات وسبع أرضين ، ثم أمطر السماء وأنبت الأرض .

قال تعالى : **﴿ وجعلنا من الماء كُلَّ شيءٍ حَيّ ﴾** أى الماء الذى كانت السماوات والأرض رتقا فيه ، جعلنا من ذلك الماء كل شيء حى **﴿ أفلا يؤمنون ﴾** .

ومما يدل على ذلك ، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد فى الآية الكريمة : الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأخبرنى عن كل شيء . فقال ﷺ « يا أبا هريرة : كل شيء خلق من ماء » .

ومن ذلك الماء أيضا ما جاء فى الصحيحين من حديث الشفاعة : أن العصاة يخرجون من جهنم يلقون فى نهر الحياة فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل الحديث .

أما الحشر فإنه فى لغة العرب معناه الجمع .

يقول العلماء : المراد بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض .

قال تعالى : ﴿ **ويوم نُسيِّرُ الجبالَ وترى الأرضَ بارزةً وحشرناهم فلم نُغادرْ منهم أحداً** ﴾ (الكهف : ٤٧) أى فلم نترك منهم واحدا . وذلك أن الله تعالى فى هذا اليوم يسير الجبال بعد ما كانت ثابتة راسخة فى أماكنها ، فإذا بها طرأت عليها حالة أنها سُيرت فكانت سراباً . وهذه الحالة هى من جملة الأحوال التى ذكرها الله تعالى عن الجبال يوم القيامة .

قال العلامة الفخر الرازى رحمه الله تعالى : إن الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ـــ أى يوم القيامة ـــ ويمكن الجمع بينها بأن نقول : أول أحوالها الاندكاك ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدةً** ﴾ (الحاقة : ١٤) أى مسحت الأرض وجبالها ودق بعضها ببعض .

والحالة الثانية : أنها تصير كالعهن المنفوش ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ** ﴾ (القارعة : ٥) أى تصير بعد أن كانت صلباً تصير كالصوف المندوف .

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء المنبث فى الهواء . قال تعالى :

﴿ **وَبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا فكانت هباءً مُنبثاً** ﴾ (الواقعة : ٥ ، ٦) أى فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس أى المبلول .

والحالة الرابعة : أن تنسفها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها فى الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الجبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها ربى نَسْفاً** ﴾ (طه : ١٠٥) .

والحالة الخامسة : أن تصير سراباً ، أى لا شىء كما يُرى السراب من بعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَسُيِّرَتْ الجبالُ فكانتِ سَرَاباً** ﴾ . (النبأ : ٢٠)

وقال تعالى : ﴿ **واستمع يوم يُنَادِ المنادِ من مكانٍ قريب * يوم يَسمعونَ الصيحةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخروج * إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصيرُ * يوم**

تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً ذلك حَشْرٌ علينا يَسِيرٌ ﴾ (ق : ٤١ ــ ٤٤) .

وهذا المنادى هو إسرافيل عليه السلام . فإنه ينادى بالأموات عن أمر من الله تعالى من مكان قريب من ذاتهم وجميع ذواتهم قائلاً : يا أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة : إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وفى هذا يقول سبحانه : **﴿ فتولَّ عنهم يوم يَدْعُ الداعِ إلى شيء نُكر * خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث[1] كأنهم جراد منتشر * مُهْطِعين[2] إلى الداعِ يقوْل الكافرون هذا يوم عَسِر ﴾** (القمر : ٦ ــ ٨) .

ثم قال سبحانه : **﴿ يوم يسمعون الصيحةَ بالحقِّ ذلكَ يَوْمُ الخروج ﴾** (ق : ٤٢) وتلك هى النفخة الثانية التى يكون بها الإحياء (ذلك يوم الخروج) من القبور (إنا نحن نحيى ونميت) أى لا شريك لنا فى ذلك (وإلينا المصير) مصير العالم ورجوع الخلائق إلينا لأجل الحساب والجزاء **﴿ يوم تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ ﴾** (ق : ٤٤) .

والمعنى أنهم يخرجون من القبور مسرعين إلى المحشر .

أول من تنشق عنه الأرض

وأول من تنشق عنه الأرض هو السيد الأكرم : سيدنا محمد ﷺ ، الذى خُصَّ بالأوليات فى جميع العوالم .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع » .

---

(١) أى القبور

(٢) مسرعين

وإنما ذكر الرسول ﷺ سيادته يوم القيامة مع أنه هو سيد ولد آدم فى كل العوالم ، ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس ، فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عياناً بلا إنكار منكر . فلا ينافى أن سيادته ﷺ ثابتة فى الدنيا وفى جميع العوالم . وأطلق فى الوصف بذلك ، أى بسيادته ﷺ ولد آدم لإفادة العموم لأولى العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين . وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز ، إذ هو ﷺ أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعاً ، كما أوضح ذلك المحققون من العلماء .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر . وما من نبى يومئذ : آدم فمن سواه إلا تحت لوائى . وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » أى هو يقول ذلك ﷺ شكرا لا فخراً ، بل شكراً لله تعالى ، وتحدثاً بنعمته ، وإعلاماً للأمة أنه مما يجب تبليغه ليعتقدوا فضله على من سواه ﷺ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

أرض المحشر

أما عن أرض المحشر ، فيحدثنا حجة الإسلام الغزالى فى كتابه العظيم « إحياء علوم الدين » فيقول :

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور : حفاة عراة غرلاً ، إلى أرض المحشر : أرض بيضاء قاع صفصف ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه ، يساقون إليه زمرا . فسبحان من جمع الخلائق على

اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة . والراجفة : هى النفخة الأولى . والرادفة : هى النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة .

قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ، ليس فيها معلم لأحد » .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع ، والنقى : هو النقى عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر وتفاوت يرد البصر .

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا ، بل لا تساويها إلا فى الرسم قال تعالى : ﴿ **يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ** ﴾ (إبراهيم : ٤٨) .

قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها ، وتمد من الأديم العكاظى أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولا يعمل عليها خطيئة . وللسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها .

فانظر يا مسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها .

فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم ، وانشقت الأرض مع غلظتها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها .

فياهول صوت انشقاقها فى سمعك ، وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة ، تخالطها صفرة ، فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث ، وهم حفاة عراة مشاة .

وقال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » .

قالت سودة زوج النبى ﷺ راوية الحديث : قلت : يا رسول الله واسوأتاه !!

ينظر بعضها إلى بعض ؟ فقال : شغل الناس عن ذلك بهم ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

فأعظمْ بيومٍ تنكشف فيه العورات ، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركباناً ، ومشاة ، وعلى وجوههم . فقال رجل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » .

فى طبع الآدمى إنكار كل ما لم يأنس به . ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل . والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك .

فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها .

فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عارياً ، مكشوفاً ، ذليلاً ، مدحوراً ، متحيراً ، مبهوتاً ، منتظراً لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة . وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة » .

* * *

ونزيد هذه المعانى التى ذكرها الإمام الغزالى عن أرض المحشر .

نزيدها وضوحاً بما ذكره الشيخ عبد الله سراج الدين فنقول وبالله التوفيق :

صدر الشيخ هذا الموضوع بقوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زَجْرةٌ واحدةٌ * فإذا هم بالسَّاهرةِ** ﴾ (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

والمعنى : فإنما هى الرادفة التى هى النفخة الثانية ، التى بها إحياء الأموات (زجرة واحدة) يجمعون بها جميعاً ولا يتخلف منهم أحد .

(فإذا هم بالساهرة) أى صاروا كلهم على وجه أرض المحشر . وإنما وصفها بالساهرة لسعة أطرافها وتباعد أكنافها ، وشدة مخاوفها ومتالفها . فلذا كان شأن من حل فيها أنه لا ينام لشدة الفزع والخوف إلا من آمنه الله ورحمه .

روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن سهل بن سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ، ليس فيها علم لأحد » .

وفى رواية : « ليس فيها مَعْلم لأحد » أى ليس فيها علامة لأحد من أبنية مرتفعة ، أو قصور ممتعة ، أو تلول ، أو جبال ممتنعة .

قال فى الفتح : وفيه — أى الحديث المتقدم — إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلت وأعدمت وأن أرض الموقف تجددت . قال : وقد وقع للسلف خلاف فى المراد بقوله تعالى : ﴿ **يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرْضِ والسماواتُ** ﴾ (إبراهيم : ٤٨) هل المراد تبديلها تغيير ذاتها وصفاتها ، أو تغيير صفاتها فقط ؟ .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبرى فى تفاسيرهم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) الآية . قال تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة ، لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة .

قال الحافظ : ورجاله رجال الصحيح ، وهو موقوف .

ولأحمد من حديث أيوب « أرض كالفضة البيضاء » .

وذكر الحافظ عدة من الآثار فى ذلك ثم قال :

وأما من ذهب إلى أن التغيير إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها ، فمستنده ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال : « إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مَدَّ الأديم وحشر الخلائق » .

ومن حديث جابر رفعه : « تمد الأرض من الأديم ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » قال : وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا ، لكن أرض الموقف غيرها . ا . هـ ملخصاً .

وقد جاء فى الحديث : « إن الأرض حين تبدل غير الأرض ، يكون الناس على الصراط » .

فقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها « أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ أين يكون الناس حينئذ ؟ قال : على الصراط » .

وأخرج مسلم من حديث ثوبان قال ﷺ « هم فى الظلمة دون الجسر » .

وفى رواية الترمذى قال : « على جسر جهنم » .

ولأحمد من طريق ابن عباس عن عائشة رضى الله عنها قالت : « على متن جهنم » .

قال الحافظ : وقد جمع البيهقى — أى بين ما تقدم — بأن المراد بالجسر الصراط وأن فى قوله : « على الصراط » مجازاً لكونهم يجاوزونه لأن فى حديث ثوبان زيادة يتعين المصير إليها لثبوتها . وكان ذلك عند الزجرة التى تقع عند نقلهم من أرض الدنيا إلى أرض الموقف .

وهكذا يحشر الناس فى أرض مستوية لا ترى فيها عوجاً ، أى انخفاضاً ولا أمتاً ، أى ارتفاعاً . بحيث إن الناظر إليهم ينظرهم ، والداعى لهم يسمعهم وقد ازدحمت عليهم الشدائد والأهوال ، وحلت فيهم الكربات والهموم ، فأحاطت بهم النار ، ودنت الشمس منهم ، وساورتهم الهموم والغموم ومهما كانت هموم الدنيا ثقيلة ، فإن همّ الآخرة أثقل ، إلا من أمنه الله وسلمه .

قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بِظُلْمٍ أولئك لهم الأمْنُ وهم مُهْتدون** ﴾ (الأنعام : ٨٢) .

وقد أشار المصطفى ﷺ إلى شدة كربات يوم القيامة ، وأنها أعظم من

كربات الدنيا ، حيث قال : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

أى : وما كربات الدنيا فى جانب كربات الآخرة إلا شىء يسير من كثير .

يقول الإمام الغزالى رضى الله عنه :

« تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأراضين السبع من : ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير . فأشرقت عليهم الشمس ، وقد تضاعف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤوس العالمين ، كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ، ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرها ، واشتد كربه وهمه وغمه من وهجها . ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة ازدحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء . فاجتمع وهج الشمس ، وحر الأنفاس ، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه .

قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعاً ، ويلجمهم ويبلغ آذانهم » كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح .

وفى حديث آخر : « قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء ، فيلجمهم العرق من شدة الكرب » .

وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : « تدنو الشمس من الأرض يوم

القيامة ، فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ، ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ فخذه ، ومنهم من يبلغ خاصرته ، ومنهم من يبلغ فاه ، وأشار بيده فألجمها فاه ، ومنهم من يغطيه العرق ، وضرب بيده على رأسه هكذا » .

فتأمل يا مسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم .

وفيهم من ينادى فيقول : ربِّ أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار .

وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً .

فإنك واحد منهم ، ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، وتردد فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب .

ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور ، لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات ، أهون أمراً ، وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويلة مدته .

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم . يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ، ولا يشربون فيه شربة ، ولا يجدون فيه روح نسيم .

قال كعب وقتادة : ﴿ **يوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين** ﴾ (المطففين : ٦) قال : يقومون مقدار ثلاثمائة عام . بل قال عبد الله بن عمر : وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال : « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » .

وقال الحسن : ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لا يأكلون فيها أكلة ، ولا يشربون فيها شربة ؛ حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً ،

واحترقت أجوافهم جوعاً ، انصرف بهم إلى النار ، فَسُقوا من عين آنية ، قد آن حرها ، واشتد لفحها .

فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به ، كلم بعضهم بعضاً فى طلب من يكرم على مولاه ، ليشفع فى حقهم . فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم وقال : دعونى ، نفسى نفسى . شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعةُ إلاَّ مَنْ أذن له الرحمٰنُ ورَضِى له قَوْلاً** ﴾ (طه : ١٠٩) .

فتأمل فى طول ذلك اليوم ، وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا للموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة .

قال ﷺ ، لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » .

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين .

فما دام يبقى لك نفَس من عمرك ، فالأمر إليك ، والاستعداد بيديك .

فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال ، تربح ربحاً لا منتهى لسروره .

فاستعد لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه .

يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كُوِّرت ، والجبال قد سُيِّرت ، والعشار قد عُطِّلت ، والوحوش قد حُشرت ، والبحار قد سُجِّرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زُوِّجت ، والجحيم قد سُعِّرت ، والجنة قد أُزْلفت ، والجبال قد نُسِفت ، والأرض

قد مُدَّت .

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية .

يوم تسير الجبال ، وترى الأرض بارزة .

يوم ترج الأرض فيه رجاً ، وتبس الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً .

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش .

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكارى ، وما هم بسُكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار .

يوم تنسف فيه الجبال نسفاً ، فتترك قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مَرَّ السحاب .

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان .

يوم يمنع فيه العاصي عن الكلام ، ولا يسأل فيه عن الإجرام ، بل يؤخذ بالنواصي والأقدام .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت ، وتشهد ما قدمت وأخرت .

يوم تخرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح .

يوم شَيَّبَ ذكره سيد المرسلين ، إذ قال له الصديق رضي الله عنه : « أراك قد

شِبْتَ يا رسول الله ، قال : شيبتنى هود وأخواتها » وهى : الواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرت .

فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكراً فيما تقرؤه ، لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك ، مما شاب منه شعر سيد المرسلين .

وإذا قنعت بحركة اللسان ، فقد حُرمت ثمرة القرآن .

فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها ، وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها ، على كثرة معانيها .

فليس المقصود بكثرة الأسامى ، تكرير الأسامى والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب .

فتحت كل اسم من أسماء القيامة : سر ، وفى كل نعت من نعوتها : معنى .

فاحرص على معرفة معانيها .

ونحن الآن نجمع لك أساميها وهي :

يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ، ويوم المحاسبة ، ويوم المساءلة ، ويوم المسابقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الدمدمة ، ويوم الصاعقة ، ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ، ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الغاشية ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ، ويوم الحاقة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، ويوم المآب ، ويوم العذاب ، ويوم الفرار ، ويوم القرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ، ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ، ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ، ويوم الفصل ، ويوم الجمع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزى .

ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ، ويوم المصير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجة ،

ويوم الزجرة ، ويوم السكرة ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ، ويوم المأوى ، ويوم الميقات ، ويوم الميعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ، ويوم الافتقار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ، ويوم الخروج ، ويوم الخلود ، ويوم التغابن ، ويوم عبوس ، ويوم معلوم ، ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لا ريب فيه .

ويوم تبلى السرائر ، ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا .

ويوم يُدَّعُون إلى نار جهنم دَعًّا .

ويوم يُسْحبون فى النار على وجوههم .

ويوم تقلب وجوههم في النار .

ويوم لا يجزى والد عن ولده .

ويوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه .

ويوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

يوم لا مرد له من الله ، يوم هم بارزون ، يوم هم على النار يفتنون .

يوم لا ينفع مال ولا بنون .

يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

يوم ترد فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر الضمائر ، وتكشف الأستار .

يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطيئات .

يوم يُساق العباد ومعهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ، ويسكر الكبير .

فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم ، وأغلى الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق ، فقارفت الفجور ؟ .

فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ .

فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين ، وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول : ﴿ اقتربَ للناسِ حسابهم وهم فى غَفْلةٍ مُعْرِضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدثٍ إلا استمعوهُ وهم يلعبون * لاَهيةً قُلوبُهُمْ ﴾ (الأنبياء : ١ — ٣) .

ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول سبحانه : ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرَ ﴾ (القمر : ١)

﴿ إنهم يَرَوْنَهُ بعيداً * ونراهُ قريباً ﴾ (المعارج : ٦ ، ٧)

وَمَا يُدْرِيكَ لعلَّ الساعةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (الأحزاب : ٦٣)

ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً ، فلا نتدبر معانيه ، ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم ، ولا نستعد للتخلص من دواهيه .

فنعوذ بالله من هذه الغفلة ، إن لم يتداركنا الله بواسع رحمته .

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال ، شفاهاً من غير ترجمان ، فتسأل عن القليل والكثير ، والنقير والقطمير .

فبينما أنت فى كرب القيامة وعرقها ، وشدة عظائمها ، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام ، وأشخاص ضخام ، غلاظ أشداء ، أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين ، إلى موقف العرض على الجبار .

قال رسول الله ﷺ : « إن لله عز وجل ملكاً ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام » .

فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم ، منكسرين ، لشدة اليوم ،

مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده .

وعند نزولهم ، لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح ، إلا ويخرون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين .

فهذا حال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟ .

وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيبتهم .

فتفزع الملائكة من سؤالهم ، إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم .

فنادوا بأصواتهم ، منزهين لمليكهم ، عما توهمه أهل الأرض ، وقالوا : سبحان ربنا ، ما هو فينا ، ولكنه آتٍ من بعد .

وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع ، وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله : ﴿ **فَلَنسألنَّ الذين أُرسِل إليهم ولنسألنَّ المرسلين * فَلَنقصَّنَّ عليهم بعلم وما كنَّا غائبين** ﴾ (الأعراف : ٦ ، ٧)

وقوله : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾

(الحجر : ٩٢ ، ٩٣)

فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ **يوم يجمعُ الله الرسلَ فيقول ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلْم لنا إنك أنت علاَّم الغيوب** ﴾ (المائدة : ١٠٩)

فياشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقول لهم : ﴿ **مَاذَا أُجِبْتُم** ﴾ وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا ، فتدهش عقولهم ، فلا يدرون بماذا يجيبون . فيقولون من شدة الهيبة : ﴿ **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾

وهم فى ذلك الوقت صادقون ، إذ طارت منهم العقول ، وانمحت العلوم ، إلى أن يقويهم الله تعالى . فيُدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير .

ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له : ﴿ **أأنت قُلْتَ للناسِ اتخذونى وأميَ إلهينِ من دُونِ الله** ﴾ ؟ (المائدة : ١١٦) فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين .

فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال .

ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً . يا فلان ابن فلانة ، هلم إلى موقف العرض .

وعند ذلك ترتعد الفرائص ، وتضطرب الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهبوا إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولا يكشف سترهم على ملأ من الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ **وأشرقت الأرْضُ بنور ربها** ﴾ (الزمر : ٦٩) وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد .

وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل ائتنى بالنار ، فيجىء لها جبريل ويقول : يا جهنم أجيبى خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره .

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد ، وقد امتلأت فزعاً ورعباً ، فتساقطوا جثياً على الركب ، وولوا مدبرين .

﴿ **يوم ترى كُلَّ أمةٍ جاثية** ﴾ (الجاثية : ٢٨)

وسقط بعضهم على الوجوه منكبين ، وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون : نفسى نفسى .

فبينما هم كذلك ، إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون .

ثم زفرت الثالثة ، فتساقط الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ، ينظرون من طرف خفى خاشع ، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل فقال : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ ؟ .

فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظراً لأمره .

ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه .

قال أبو هريرة : « قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم ، فيلقى العبد ربه فيقول له : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول العبد : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فأنا أنساك كما نسيتنى » .

فتوهم نفسك يا مسكين ، وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى ، يسألك شفاهاً فيقول لك : ألم أنعم عليك بالشباب ، ففى ماذا أبليته ؟ ألم أمهل لك فى العمر ، ففى ماذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال ، فمن أين اكتسبته ؟ وفى ماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم ، فماذا عملت فيما علمت ؟ .

فكيف ترى حياءك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك ، وأياديه ومساويك ؟ فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك .

قال أنس رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : فإنى لا أجير على نفسى إلا

شاهداً منى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى . قال : فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول لأعضائه : بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً فعنكُنَّ كنت أناضل » .

إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره .

قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فيقول عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ثم يقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم » .

وقال ﷺ « من ستر على مؤمن عورته ، ستر الله عورته يوم القيامة » .

✿ ✿ ✿

الفصل الخامس

جملة من وصايا رسول الله

- جدد السفينة فإن البحر عميق .
- ثمرات الحب فى الله .
- أكثر من الزاد فإن السفر طويل .
- أخلص العمل فإن الناقد بصير .
- كلمة حق خالدة .
- الصدق فى القول و الإخلاص فى العمل .
- خفف الحمل فإن العقبة كؤود .
- حزب الله و حزب الشيطان .

جدد السفينة فإن البحر عميق

ويحسن بنا ونحن أمام الوعد الحق ، والبعث بعد الموت ، أن نسلك بك أيها القارىء إلى طريق النجاة ، ماذا أعددت من زاد ليوم المعاد ؟

صم عن الدنيا ، وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

وخير الزاد التقوى ، وما كان عليه سيد الأتقياء محمد ﷺ من الخلق الكريم ، والقلب الرحيم .

اسمع إلى هذه الوصايا الغوالى ، وإلى تلك النصائح العوالى :

عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب فى الله ويبغض فى الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » رواه مسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سرَّه أن يجد حلاوة الإيـمان فليحبْ المرء لا يحبه إلا لله » رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته

امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبا لصاحبه » رواه الطبرانى وأبو يعلى .

وعن أبى إدريس الخولانى قال : دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا وإذا الناس معه ، فإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه ، وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه فقيل : هذا معاذ بن جبل ، فلما كان من الغد هجرت فوجدته قد سبقنى بالتهجير ، ووجدته يصلى ، فانتظرته حتى قضى صلاته ، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت له : والله إنى لأحبك لله ، فقال : آلله ؟ فقلت : آلله . فقال : آلله ؟ فقلت : آلله ، فأخذ بحبوة ردائى فجذبنى إليه ، فقال : أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىَّ ، وللمتجالسين فىَّ ، وللمتباذلين فىَّ » رواه مالك بإسناد صحيح وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى مسلم قال : قلت لمعاذ : والله إنى لأحبك لغير دنيا أرجو أن أصيبها منك ، ولا قرابة بينى وبينك . قال : فلا شىء ؟ قلت : لله . قال : فجذب حبوتى ثم قال : أبشر إن كنت صادقا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المتحابون فى الله فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء » .

قال : ولقيت عبادة بن الصامت فحدثته بحديث معاذ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى « حقت محبتى على المتحابين فىَّ ، وحقت محبتى على المتناصحين فىَّ ، وحقت محبتى على المتباذلين فىَّ ، هم على منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء والصديقون » رواه ابن حبان فى صحيحه .

وروى الترمذى حديث معاذ فقط ، ولفظه : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله عز وجل : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » وقال : حسن صحيح .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يأثر عن ربه تبارك وتعالى يقول « حقت محبتى للمتحابين فىَّ ، وحقت محبتى للمتواصلين فىَّ ، وحقت محبتى للمتزاورين فىَّ ، وحقت محبتى للمتباذلين فىَّ » رواه أحمد بإسناد صحيح .

وعن شرحبيل بن السمط أنه قال لعمرو بن عبسة : هل أنت محدثى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه نسيان ولا كذب ؟ قال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : قد حقت محبتى للذين يتحابون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتباذلون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتصادقون من أجلى » رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله جلساء يوم القيامة عن يمين العرش وكلتا يدى الله يمين ، على منابر من نور وجوههم من نور ، وليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين ، قيل يارسول الله : من هم ؟ قال : هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى » رواه أحمد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم لعلنا نحبهم ؟ قال : هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم قرأ : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس : ٦٢) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عبادا يجلسهم يوم القيامة على منابر من نور يغشى وجوههم النور ، حتى يفرغ من حساب الخلائق » رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله

عز وجل : المتحابون بجلالى فى ظل عرشى يوم لا ظل إلا ظلى » رواه أحمد بإسناد جيد .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال يا رسول الله جَلِّهم لنا نعرفهم . قال : هم المتحابون فى الله من قبائل شتى وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه » رواه الطبرانى .

وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله ، فخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لَنور ، وإنهم لعلى نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ هذه الآية ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس : ٦٢) رواه أبو داود .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن لله عز وجل عبادا ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله أنعتهم لنا ، جَلِّهم لنا — يعنى صِفهم لنا — فَسُرَّ وجه النبى ﷺ بسؤال الأعرابى ، فقال رسول الله ﷺ : هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله ، وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة لعمداً من ياقوت عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتحة ، تضىء كما يضىء الكوكب الدرىّ . قال : قلنا يا رسول الله : من يسكنها ؟ قال : المتحابون فى الله ، والمتباذلون فى الله ، والمتلاقون فى الله » رواه البزار .

وروى عن بريدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة غرفا ترى ظواهرها من بواطنها وبواطنها من ظواهرها ، أعدها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وروى عن معاذ بن أنس رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان ؟ . قال : أن تحب لله ، وتبغض لله ، وتعمل لسانك فى ذكر الله . قال : وماذا يا رسول الله ؟ . قال : وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك » رواه أحمد .

وعن عمرو بن الجموح رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ، ويبغض لله ، فإذا أحب لله تبارك وتعالى ، وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله تعالى » رواه أحمد والطبرانى ، وفيه رشدين بن سعد .

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :« من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله ، فقد استكمل إيمانه » رواه أحمد والترمذى .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فقال : « أي عرى الإسلام أوثق ؟ قالوا : الصلاة . قال : حسنة ، وما هى بها . قالوا : صيام رمضان . قال : حسن وما هو به . قالوا : الجهاد . قال : حسن وما هو به . قال : إن أوثق عرى الإيمان أن تحب فى الله ، وتبغض فى الله » رواه أحمد والبيهقى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الأعمال الحب فى الله ، والبغض فى الله » رواه أبو داود .

وعن أنس رضى الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « متى الساعة ؟ قال : وما أعددت لها ؟ قال : لا شيء إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : أنت مع من أحببت . قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبى ﷺ : أنت مع من أحببت . قال أنس : فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم » رواه البخارى ومسلم .

وقد جاء فى الحكمة للإمام على الرضا رضى الله عنه :

مَنْ نازع الأفيال فى أمرهم	بات بعيدَ الرأس عن جثته
من لاَعب الثعبان فى كفه	هيهات أن يَسْلم من لسعته
من عاشر الأحمق فى حاله	كان هو الأحمق فى عشرته
لا تصحب النذلَ فتردى	لا خيرِ فى النذل ولا صحبته
من اعتراك الشك فى جنسه	وحاله فانظر إلى شيمته
من غرس الحنظل لا يرتجى	أن يجتنى السكر من غرسته
من جعل الحق له ناصرا	أيده الله على نصرته ..

وفى رواية للبخارى : أن رجلاً من أهل البادية أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : « متى الساعة قائمة ؟ قال : ويلك وما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : إنك مع من أحببت . قال : ونحن كذلك ؟ قال : نعم . ففرحنا يومئذ فرحاً شديدا »

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : « كيف ترى فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله « الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم . قال : أنت يا أبا ذر مع من أحببت . قال : فإنى أحب الله ورسوله . قال : فإنك مع من أحببت . قال : فأعادها أبو ذر ، فأعادها رسول الله ﷺ » رواه أبو داود .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا

تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث هن حق : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، ولا يتولى الله عبدا فيوليه غيره . ولا يحب رجل قوما إلا حشر معهم » رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط بإسناد جيد .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة . ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم » الحديث رواه أحمد بإسناد جيد .

وعنها رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور وتبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض . قال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾ (آل عمران : ٣١) رواه الحاكم .

ثمرات الحب فى الله

أولاً : يتذوق حلاوة الإيمان ، فيسرى بجسمه النور المحمدى ، ويتغذى بلبان الإسلام ، فيحيا حياة السعداء .

ثانياً : يحيطه الله برحمته ، ويقيه عاديات شدائد يوم القيامة .

ثالثاً : يجلب له الأمن والسرور ، ويعد فى مصاف السبعة الذين يظلهم برضوانه وإحسانه .

رابعاً : شجرة إيمانه مورقة مزهرة مباركة كاملة .

خامساً : دليل على زيادة محبة الله ورسوله .

سادساً : برهان القبول وعنوان التوفيق .

سابعاً : زيادة درجات فى الجنة بجوار منازل الأبرار .

ثامناً : قلوبهم مطمئنة آمنة من الأهوال ، تتلألأ وجوههم نوراً وسروراً .

تاسعاً : عروة الإيمان الوثقى من تمسك بها نجا .

عاشراً : بشائر الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله المشوبة بالإخلاص لله الدالة على الهداية والنجاح .

الحادى عشر : يحشر مع الصالحين .

الثانى عشر : سلوك حسن وصحبة نافعة ، وسيرة طيبة ، ونية صالحة ، وعيشة سعيدة .

الثالث عشر : له نصيب فى الخير وسهم فى الأجر .

الرابع عشر : يدل على كمال الدين وصفاء السريرة ، والعمل المتقن ، وخوف الله ، ورعاية جانبه ، واحترام كتابه ، وحب سنة حبيبه ﷺ .

الخامس عشر : لا يتسرب إلى من يحب لله الإشراك بالله لأنه يأمن عواقب أعماله ، ويضمن إخلاصه ، ويسلم من شوائب الإلحاد .

أكثر من الزاد فإن السفر طويل

نعم إن السفر طويل ، فَصُمْ عن الدنيا ومعاصيها ، وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صُبحها يوم القيامة .

ما أطول السفر ، لأنه فى عالم البرزخ ، وما وراء البرزخ أعنف من أن يمخرُ عُبابه سباح ماهر .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ *

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة : ١٣ — ٣٧) .

صدقت يارب العزة ، وبلغ رسولك .

أخا الإسلام :

أعد قراءة هذا المشهد مرة ومرة ، فإنه يصور لك بكل دقة مدى طول السفر ، ويشرح لك بتفصيل ما سوف يجرى علينا ونحن فى عالم البرزخ .

أرض تدك بالجبال ، وسماء تنشق وتنفطر ، وجنة تنادى على أحبابها ، وجحيم تسعر لأعداء الله .

فاستعدوا لأهوال القيامة ياأولى العقول والألباب ، وانشدوا :

مَثِّل لقلبك أيها المغــرور ... يومَ القيامة والسماء تمــور
قد كُوِّرتْ شمسُ النهار وضُعِّفَتْ ... حَرّاً على رأس العباد تفور
وإذا الجبال تعلّقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجومُ تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدورُ
وإذا العِشَار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمورُ
وإذا الوحوش لدى القيامة أُحضرت ... وتقول للأملاك أيـن نسيـرُ
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور

وإذا الجنين بأمه مُتعلِّــقٌ خَوْفَ الحساب وقلبه مذعورُ
هذا بلا ذنب يخاف لهوله كيف المقيمُ على الذنوب دهور

أخا الإسلام :

هلا أكثرت من الزاد لطول السفر ؟

أو لم تسمع قول رسول الله ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه ، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل » ؟ .

وفى الحديث : « الندم توبة » .

وقد سُئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال : هى الفزع بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإضمار على أن لا يعود .

وسمع سيدنا على ، رضى الله عنه أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : ياهذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين . فقال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة ، وللفرائض الإعادة ــ يعنى القضاء ــ ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى .

والتوبة بصفتها المذكورة هى المنجية لصاحبها من العقاب .

يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه ابن عساكر عن أنس : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب » .

أخا الإسلام :

ما فى الحيـــاة بقـــاءُ ما فى الحيـــاة ثبـــوتُ
نبنى البيـــوتَ وحتمـــاً تنهارُ تلك البيـــــوتُ
تمـــوتُ كُلُّ البـرايـــا سبحان مَنْ لا يمـــوتُ

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فيقْدُمُ على الله كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فيقدم على الله كالعبد الآبق لسيده ، يأتى مولاه خائفا حزينا .

قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم ، قال : فأى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه . قال : فأى الصدقة أوفى ؟ قال : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأى القول أفضل ؟ قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، ودل الناس عليها . قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنياه . قال : عظنى وأوجز . قال : نَزِّهْ ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك ؛ أو يفقدك حيث أمرك .

فبكى الأمير . فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين أو أحزنته . فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه . ثم خرج فبعث إليه بحلى ، فرده ، وقال لا أرضاه لكم ، فكيف آخذه منكم . أ هـ .

جملة من وصايا الرسول

من وصايا رسول الله ﷺ ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : أوصانى رسول الله ﷺ فقال لى : « أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت تكثر حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، وارحم الصغير ، ووقِّر الكبير ، تكن من رفقائى يوم القيامة »

ومن وصاياه ﷺ لأبى ذر : « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلص العمل فإن

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبي ذر أيضا ، قال : « أوصاني خليلي محمد ﷺ بثلاث ، قال : « اسمع وأطع ولو لعبد مجذوع ، وإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبهم بمغرفتك ، وصلِّ الصلاة لوقتها » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبي ذر رضى الله عنه أيضا قال : « أوصاني خليلي ﷺ بسبع لم أتركهن ولا أتركهن : أوصاني بحب المساكين والدنو منهم ، وأن أنظر إلى من هو أسفل منى ولا أنظر إلى من هو فوق ، وأن أصل رحمى ، وإن أدبرت وقطعت ، وأن أستكثر من قول : لا إله إلا الله فإنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لا أسأل الناس شيئا ، وأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأن أقول الحق وإن كان مراً » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « أوصاني خليلي ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد » .

وعن أبي هريرة أيضا : « علمني رسول الله ﷺ ثلاث خصال ، لا أدعهن حتى أموت : لا أنام إلا على وضوء ، وأن أصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وأن لا أدع صلاة الضحى » .

ومن وصاياه ﷺ قوله لعائشة : « إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقى ثوبا حتى ترقعيه » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : « خدمت النبى ﷺ وأنا ابن ثمان سنين ، فكان أول ما علمني أن قال : أحكِم وضوءَك لصلاتك يحبك حفظتك ، ويزد فى عمرك ، يا أنس يا بنى اغتسل من الجنابة وبالغ فيه ، فإن تحت كل شعرة جنابة ، قال قلت : يارسول الله كيف أبالغ فيها ؟ قال : يا أنس أدلك جميع بدنك ، وأفض الماء حتى يبلغ إلى جميع بشرتك ، ورد أصول الشعر ، وأنق بشرتك تخرج من مغتسلك وقد غفر ذنبك . يابنى لا يفوتنك ركعتا الضحى فإنها صلاة الأوّابين ، وأكثر الصلاة بالليل والنهار فإنك ما دمت فى الصلاة فإن الملائكة يصلون عليك ، يا أنس إذا قمت إلى الصلاة فانصب

نفسك لله تعالى ، وإذا ركعت فاجعل راحتيك على ركبتيك وفرِّج بين أصابعك وارفع عضديك عن جنبك . وإذا رفعت رأسك فقم حتى يعود كل عضو إلى مكانه ، وإذا سجدت فألزق وجهك بالأرض ولا تنقر نقر الغراب ، ولا تبسط ذراعيك بسط الثعلب وإذا رفعت رأسك من السجود فلا تقع كما يقعى الكلب ، وَضَعْ إليتك بين قدميك وألزق ظاهر قدميك بالأرض ، فإن اللهَ تعالى لا ينظر إلى صلاة لا يتم ركوعها وسجودها . وإن استطعت أن تكون على الوضوء فى يومك وليلتك فافعل فإنه إن يأتك الموت وأنت على ذلك لم تَفُتْكَ الشهادة .

يا أنس إذا دخلت بيتك فسلِّم على أهل بيتك تكثر بركتك وبركة بيتك ، فإذا خرجت لحاجة فلا يقعن بصرك على أحد من أهل قبلتك إلا سلمت عليه تدخل حلاوة الإيمان فى قلبك ، وإن أصبت ذنبا فى مخرجك رجعت وقد غفر لك .

يا أنس لا تبيتن ليلة ، ولا تصبحن يوما ، وفى قلبك غش لأحد من أهل الإسلام ، فإن هذا من سنتى ، ومن أخذ سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى فهو معى فى الجنة .

يا أنس : إذا عملت هذا وحفظت وصيتى فلا يكون شيء أحب إليك من الموت فإن فيه راحتك » .

* * *

ومن وصاياه ﷺ قوله لمعاذ بن جبل « اتق الله حيثِ كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن وصاياه ﷺ ما روى عن العرباض بن سارية رضى الله عنه ، قال : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مُودِّع ، فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد . وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

ومن وصاياه ﷺ ما روى عن معاذ بن جبل قال : « قلت يارسول الله

أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه لَيسيرٌ على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل . ثم تلا ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٦ ، ١٧) ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه ، وقال : كُف عليك هذا . قلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ــ أو قال : على مناخرهم ــ إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

* * *

ومن وصاياه ﷺ لبعض أهله : « لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قطعت أو حرقت ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فإنه من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، وإياك والمعصية ، فبالمعصية يحل سخط الله » .

ووصاياه ﷺ ونصائحه لا تحيط بها الدواوين ، ولا تستقصيها أقلام الكاتبين .

وقد سار على ذلك النهج القويم والصراط السوى المستقيم ، الصحابة والتابعون ، والعلماء الأجلة العاملون . فكم بذلوا للخلق من النصح الأتم ، وكم حضوا على ما فيه النفع الأعم .

أخلص العمل فإن الناقد بصير

كتب الإمام الغزالى رضى الله عنه إلى الشيخ أبى الفتح بن سلامة :

قرع سمعى أنك تلتمس منى كلاما وجيزا فى معرض النصح والوعظ ، وإنى

لست أرى نفسى أهلاً له ، فإن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ .

وقد أوصى الله تعال عيسى بن مريم عليه السلام : « يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستح منى » .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسأل ، فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ، والعلم إمام والعمل تابعه ، ومن لم يمش على الجادة ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة كيف ينصح سواه ويعظ غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ، ولا تقبل نصيحته ، فقلما ينتفع بوعظ الواعظ ، ونصح الناصح إذا لم يكن متصفا بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التى ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب .

وقد علق الشارع الوعيدَ الشديدَ على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن المنكر وفعله .

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام أنه كان لا يأمر بشىء إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء إلا كان أول تارك له .

وقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة :٤٤) روى أنها نزلت فى اليهود كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون .

وفى الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم وفعل مثل فعلهم .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ عظيم وتشنيع ذميم .

والمعنى : أفلا تفطنون لقبيح ما ارتكبتم وشنيع ما تعاطيتم ؟ كأنه جعلهم مسلوبى العقول ، لأن العقل يأبى هذا .

وقال البزار عن أبى بَرْزَةَ إن النبى ﷺ قال : « مثل الذى يعلم الخير للناس وينسى نفسه ، مثل الفتيلة تضىء على الناس وتحرق نفسها » .

وفى رواية للطبرانى « كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أراد أن ينصب نفسه إماما ، فعليه بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وقد حكى أن رجلا كان يجلس قريبا من محمد بن واسع ، فسمعه ابن واسع يوما يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول « مالى أرى القلوب لا تخشع ؟ ومالى أرى العيون لا تدمع ، والجلود لا تقشعر ؟ . فقال له ابن واسع : يا عبد الله ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب استقر فى القلب .

وقيل لحمدون القصار : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ . قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

كلمة حق خالدة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة : ١٨) .

ويقول عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر : ٢٨) .

ويقول تبارك اسمه : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب : ٣٩) .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء » .

وها هو ذا التاريخ المجيد ، تاريخ الإسلام الخالد ، يحدثنا عن رجل من رجالات الأمر بالمعروف الذين إذا قالوا فإنما يضعون أرواحهم على أكفهم رخيصة فى أسواق

الشهادة .

وهذا الرجل لم يقف التاريخ على اسمه ولكنه دخل التاريخ من أشرف أبوابه وأوسعها .

وما أكثر هؤلاء الجنود المجهولين الذين وقفوا المواقف الجليلة الجديرة بأن تسجل بحروف الذهب على صفحات النور .

ولندع الحقائق تكلمنا ، ولْنصغ إلى صوتها فى خشوع وأدب .

روى أن عبد الملك بن مروان خطب يوما ، فلما انتهى إلى موضع الوعظ فأحسن كل الإحسان إليه ، قام رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون . أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فى أنفسنا فأنّى ؟ وكيف ؟ وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غدا بين يديه ؟ وإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه؟ وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا ، وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟ .

الصدق فى القول و الإخلاص فى العمل

إذا ذكر اسم سفيان الثورى تدانت المعانى الجليلة ، والخصال النبيلة إلى ذهن ذاكره . فاسم سفيان مقارن للزهد والورع ، والإخلاص والتقوى والنقاء .

أليس هو الرجل الذى ملأ أطباق الأرض علما وزهدا ؟

أليس هو القوَّام الصوَّام ، الذى رآه أحدهم فى المنام بعد موته فقال له كيف حالك يا أبا سعيد ؟ فأنشد قائلا :

نظرتُ إلى ربى كفاحا فقال لى
هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنتَ قوَّاما إذا أظلم الدُّجى
بعبرة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أى قصر أردته
وزُرْنى فإنى منك غيرُ بعيد

بماذا حدثنا التاريخ عن هذا الإمام الجليل ، وماذا حدث له وهو يخطب المسلمين ذات يوم ؟

استمع يا أخى بأذن قلبك . لقد رووا أن سفيان الثورى رحمه الله ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ، ويرغبهم فى ثوابه ، ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يتوافدون عليه . فصعد يوما منبره على عادته ، فلما استقر به الجلوس وأراد أن يتكلم ، رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما رآها تغير لونه وبكى بكاء شديدا ثم نزل ولم يتكلم . فسأله أصحابه ومن يعز عليه ، أن يخبرهم بما فى الرقعة ، فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيْره
هلاّ لنفسك كان ذا التعليمُ ؟

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به وأنت سقيمُ

ونراك تصلحُ بالرشادِ عُقُولنا
أبدا وأنت من الرشاد عديم

فابدأ بنفسك وانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك يُسمعُ ما تقولُ ويقتدى
بالقول فيه وينفعُ التعليمُ

لا تنه عن خُلق وتأتى مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

فلما قرأ ذلك بكى بكاء شديدا حتى أغمى عليه ، فلما أفاق ، قالوا له يا سيدى إن كلامك موزون ، وعرضك مصون تشفى القلوب بوعظك ، وتسلى المحزون ، فكيف يؤثر فى قلبك هذا الكلام ؟ وأنت إمام وأى إمام !! فبكى ،

وقال : أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس ، فأنا أعرف بنفسي من غيري . ثم فاضت عيناه واشتغل بوجده وجداه . وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمعه أو يراه حتى مات رحمه الله .

ولله در القائل فى هذا المعنى :

مواعظ الواعظ لن تقبل   حتى يعيها قلبه أولا
ياقوم من أظلم من واعظ   خالف ما قد قاله فى الملا
أظهر للعالم إحسانه   وخالف الرحمن لما خلا

اللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع ، وعمل لا يرفع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع .

وقال أبو العتاهية :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما   إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كملبس الثوب من عرى وعورته   للناس بادية ما إن يواريها
وأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه   فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفتها بعيوب الناس تبصرها   منهم ولا تبصر العيب الذى فيها
تعيب دنيا وناسا عاملين لها   وأنت أكثر منهم رغبة فيها

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى اتخذ له شعارا خالدا يقول فيه : رحم الله امرءا أهدى إلىَّ عيوبى .

صدقت يافاروق هذه الأمة ، فإن صديقك هو من يَصْدُقك ، لا من يُصدِّقك وإن صديقك هو الذى يبصرك بعيبك .

* * *

أخا الإسلام :

إذا عبت أمرا فلا تأتِه ... وذو اللبِّ مجتنبٌ ما يعيبُ

قال أحد الحكماء :

ما أقبح التزهيد من زاهد ... يُزهِدُ الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان فى تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيتُه المسجدُ
إن رفضَ الدنيا فما بالُه ... يستمنحُ الناسَ ويسترفدُ
الرزق مقسومٌ على قدر ... يسعى له الأبيض والأسود

وقال غيره :

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله

هكذا كانت دعوتهم تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إنها شجرة الإخلاص . وقد أخبر الله تعالى عن جزاء المخلصين فقال : ﴿ **إلاَّ الذين تابوا ، وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم للّهِ فأولئك مع المؤمنين وسوف يُؤتِى اللّهُ المؤمنين أجراً عظيماً** ﴾

(النساء : ١٤٦)

خفف الحمل فإن العقبة كئود

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّهَ وَلْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ واتقوا اللّهَ إن الله خبيرٌ بما تعملون * ولا تكونوا كالذينَ نَسُوا اللّهَ فأنساهم أنفسهم أولئك هُمُ الفاسقون * لا يستوى أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنةِ هُمُ الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لَرأيته خاشعاً مُتصدِّعاً من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لَعلَّهم يتفكرون * هو الله الذى لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادة ، هو الرحمن الرحيم * هو اللّهُ الذى لا إله إلا هو الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سُبحان الله عما يُشْركون *

هو اللّهُ الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يُسبحُ له ما فى السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم ﴾ (الحشر : ١٨ ــ ٢٤)

من هؤلاء الرجال الصفوة الذين اتقوا الله حق تقاته وأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ، العارف بالله أبو حازم ، الذى جعل نُصْبَ عينيه قول الله تعالى : **﴿ كتبَ الله لأغلبنَّ أنا ورسلى إن الله قوىّ عزيزٌ ﴾** (المجادلة : ٢١) فما قصته مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ؟

لنستمع إلى حقائق التاريخ ، تحدثنا بلسان اليقين ومنطق الحق المبين .

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة :

فقال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟

قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقل من العمران إلى الخراب .

قال سليمان : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فيقدم على الله كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسىء فيقدم على الله ، كالعبد الآبق لسيده ، يأتى مولاه خائفا حزينا .

قال سليمان : فأى الأعمال أفضل ؟ .

قال أبوحازم : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه .

قال سليمان : فأى الصدقة أوفى ؟ .

قال أبو حازم : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه .

قال سليمان : فأى القول أفضل ؟ .

قال أبو حازم : كلمة حق عند من يخاف .

قال سليمان : فأىُّ الناس أعدل ؟ .

قال أبو حازم : من عمل بطاعة الله ودل الناس عليها .

قال سليمان : أيُّ الناس أجهل ؟ .

قال أبو حازم : من باع آخرته بدنياه .

قال سليمان : عظنى وأوجز .

قال أبو حازم : نَزِّهْ ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

فبكى الأمير : فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين .

فقال أبو حازم : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه .

ثم خرج فبعث إليه سليمان بشيء من الحلى والجواهر فرده وقال : لا أرضاه لكم فكيف آخذه منكم ؟ اهـ

يرحمك الله يا أبا حازم ، يامَنْ وقفت موقف الأبطال أمام أبواب الدنيا ومتاعها ، فكنت كما كان أمير المؤمنين علىٌّ فى وصفه الدنيا .

قال معاوية بن أبى سفيان لضرار الصدائى وكان من أصحاب الإمام على : ياضرار صِفْ لى علياً .

قال ضرار : اعفنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : لَتصفنه .

قال ضرار : أما إذ لا بد من وصفه .

فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته .

كان والله غزير العَبْرةِ ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .

يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين .

لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، متمثلا فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، يقول يا دنيا غُرّى غيرى ، إلىَّ تعرضتِ ؟ أم إلىَّ تشوقت ! هيهات هيهات ، لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير . آه من قلة الزاد ، وبُعْدِ السفر ، ووحشة الطريق .

فبكى معاوية وقال :

يرحم الله أبا الحسن لقد كان كذلك . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟

قال ضرار : حزن من ذُبحَ واحدها فى حِجْرِهَا .

حزب الله و حزب الشيطان

يرحم الله هؤلاء الناس . أولئك حزب الله الذين قال فيهم مولانا : ﴿ **فسوف يأتى اللّهُ بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون فى سبيلِ الله ولا يخافون لَوْمةَ لائم ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء والله واسعٌ عليم * إنما وليُّكم اللّهُ ورسولُهُ والذين آمنوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فإن حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغالبون** ﴾ . (المائدة : ٥٤ — ٥٦)

نعم إنهم حزب الله الذين وصف الله شدة إيمانهم بقوله :

﴿ **لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليومِ الآخرِ يُوادُّون من حَادَّ اللّهَ ورسوله ولو كانوا آباءَهم أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أو إخوانَهم أو عشيرَتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمانَ وأيدهم بِرُوحٍ منه ويدخلهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزبُ الله ألاَ إن حزبَ الله هُمُ المفلحون** ﴾

(المجادلة : ٢٢)

وإذا كان هؤلاء هم حزب الله فإن من حاد عن طريقهم ، وتنكب عن جادتهم ، فقد دخل فى حزب الشيطان ، لأن القسمة ثنائية ، لا تحتمل ثالثا ، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

﴿ وَقل جاءَ الحقُّ وزهق الباطلُ إن الباطلَ كَان زَهُوقاً ﴾ (الإسراء : ٨١)

وإذا كان القرآن الكريم بيَّن لنا بياناً تفصيليا مواصفات حزب الله ، فذكر أن أول صفاتهم أنهم قوم يحبهم الله ويحبونه .

الثانية ــ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

الثالثة ــ يجاهدون فى سبيل الله .

الرابعة ــ ولا يخافون لومة لائم .

الخامسة ــ يتولون الله ورسولَهُ والذين آمنوا .

السادسة ــ لا يُوادون من حاد الله ورسوله مهما كان من صلات النسب ولو كانت أبوة ، أو بنوة ، أو أخوة ، أو عشيرة .

هذه أوصافهم والأسس التى مشوا عليها والمبادىء التى تمسكوا بها ، لا تفريط فى حرف منها .

من أجل ذلك كانوا جديرين بأن يحكم الله لهم بهذه الأحكام المنجية من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

أولاً ــ فإن حزب الله هم الغالبون .

ثانيا ــ كتب فى قلوبهم الإيـمان .

ثالثا ــ أيدهم بروح منه .

رابعاً ــ يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها .

خامساً ــ رضى الله عنهم ورضوا عنه .

سادساً ــ شرفهم بأن جعلهم حزبه ، وأضافهم لذاته إضافة تشريف وتكريم .

سابعاً ــ حكم لهم بالفلاح حيث قال : ﴿ أولئك حزبُ الله ألاَ إنَّ حزبَ الله هم المفلحون ﴾ (المجادلة : ٢٢)

من هؤلاء ؟

﴿ محمدٌ رسول الله والذين معه أشِدَّاءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهم تَراهم رُكَّعا سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله وَرِضْواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراةِ ، وَمَثَلُهمْ فى الإنجيل كزرْعٍ أخرج شطأه فآزرهُ فاستغلظ فاستْوى على سُوقه يُعْجِب الزُّراعَ لِيَغِيظ بهمُ الكفارَ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾ . (الفتح : ٢٩)

أين تلقوا تعاليمهم ؟

وفى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟

وعلى يد من تتلمذوا ؟

وعلى مناهج من درسوا وسلكوا ؟

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مُبيِّناتٍ ومثلاً من الذين خَلَوْا من قبلكم وموعظةً للمتقين * اللّهُ نور السماوات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ المصباحُ فى زُجَاجَةٍ ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرىٌّ يُوقدُ من شجرة مباركةٍ زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زَيْتُهَا يُضىء ولو لم تَمسسْهُ نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى الله لنوره مَنْ يشاء ويضربُ الله الأمثالَ للناسِ والله بكل شىءٍ عليم ﴾
(النور :٣٤ ، ٣٥)

أين تربوا ؟

﴿ فى بُيوتٍ أذِنَ اللّهُ أن تُرفعَ ويُذْكرَ فيها اسمُه يُسَبِّحُ له فيها بالغدوِّ والآصال * رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيْعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ﴾ . (النور : ٣٦ ، ٣٧)

ما عاقبتهم ؟ .

﴿ ليجزيهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق مَنْ يشاء

بغير حساب ﴾ . (النور : ٣٨)

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تتبعوا خُطُواتِ الشيطان ومَنْ يتَّبع خطواتِ الشيطانِ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، وَلَوْلَا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ما زَكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله يُزكِّى مَنْ يشاءُ والله سميعٌ عليم ﴾ . (النور : ٢١)

لقد حذرنا الله تعالى من اتباع الشيطان والانخراط فى حزبه .

﴿ إن الشيطانَ لكم عدوٌ فاتخذوه عَدُوا إنما يدعو حِزْبَهُ ليكونوا من أصحاب السَّعير ﴾ (فاطر : ٦)

ما مواصفات أتباع حزب الشيطان ؟ .

﴿ ألم تَرَ إلى الذين تَولَّوْا قَوْماً غضِب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم وَيحلفُونَ على الكذب وهم يعلمونَ * أعدَّ الله لهم عذابا شديداً إنهم ساءَ ما كانوا يعملُون * اتخذوا أيمانَهُمْ جُنَّةً فصدُّوا عن سبيل الله فلهُمْ عذابٌ مُهين * لن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون * يوم يبعثهُم الله جميعاً فيحْلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألاَ إنهم هُمُ الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذِكْرَ الله أولئك حِزْبُ الشيطان ألاَ إن حزبَ الشيطان هُمُ الخاسرون * إنَّ الذين يُحادُّونَ الله ورسوله أولئك فى الأذلِّين ﴾ (المجادلة : ١٤ — ٢٠)

فإنك ترى فى هذا المشهد القرآنى تحديدا قويا لمنهج حزب الشيطان .

أولا : موالاتهم لأعداء الله .

ثانيا : الكذب على الله .

ثالثا : حلفهم بالله كذبا يوم القيامة واتخاذهم الأيمان جُنَّةً فى الدنيا .

رابعا : استحواذ الشيطان عليهم حتى أنساهم ذكر الله .

ومن هنا حكم الله عليهم فى العذاب الشديد ، وأنهم الخاسرون ، وأنهم الأذلون وكفى بهذه الأحكام خسراناً مبيناً .

الفهرس

رقم الإيداع : ٢٩٩٦ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٢ - ٠٨ - ١٦٨٥ - ٩٧٧

دار البشير ـ القاهرة

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص . ب : ١٦٩ المعادي . ت : ٩٨٧٣٦٨

هذا الكتاب

يحتاج الانسان دائما لمن يُذَكِّره أمر آخرته ، أمر وقوفه بين يدي الله للحساب ، عسى أن يكون ذلك دافعاً له لان يدرك حقيقة الدنيا التي يعيشها ، فيسلك سلوكا صالحا يرضاه ربه ويحمده الناس .

لذلك فقد كانت قضية البعث واليوم الآخر أحد المحاور التي دار عليها القرآن وركز عليها وحشد لها الأدلة على صدقها وحقيتها ، حتى يكون الإنسان على أهْبة الاستعداد لما يتلو انتهاء مدة حياته على هذه الأرض مهما كانت تلك المدة .

والشيخ "عبد الحميد كشك" يتعرض لهذا الموضوع بأسلوبه المعروف والذي عرفه الناس خطيبا وواعظاً ثم كاتباً وهو لا ينسى أن يربط بين الدين والعلم في إثبات البعث ، ثم يتبع ذلك ببعض تلك المواعظ التي تشكل منارات هدى يستضيء بها السالكون طريقَ الجنة والسائرون على درب الفلاح .

دار البشير

دار البشير - القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص.ب : ١٦٩ المعادي - ت : ٩٨٧٣٦٨